رواية

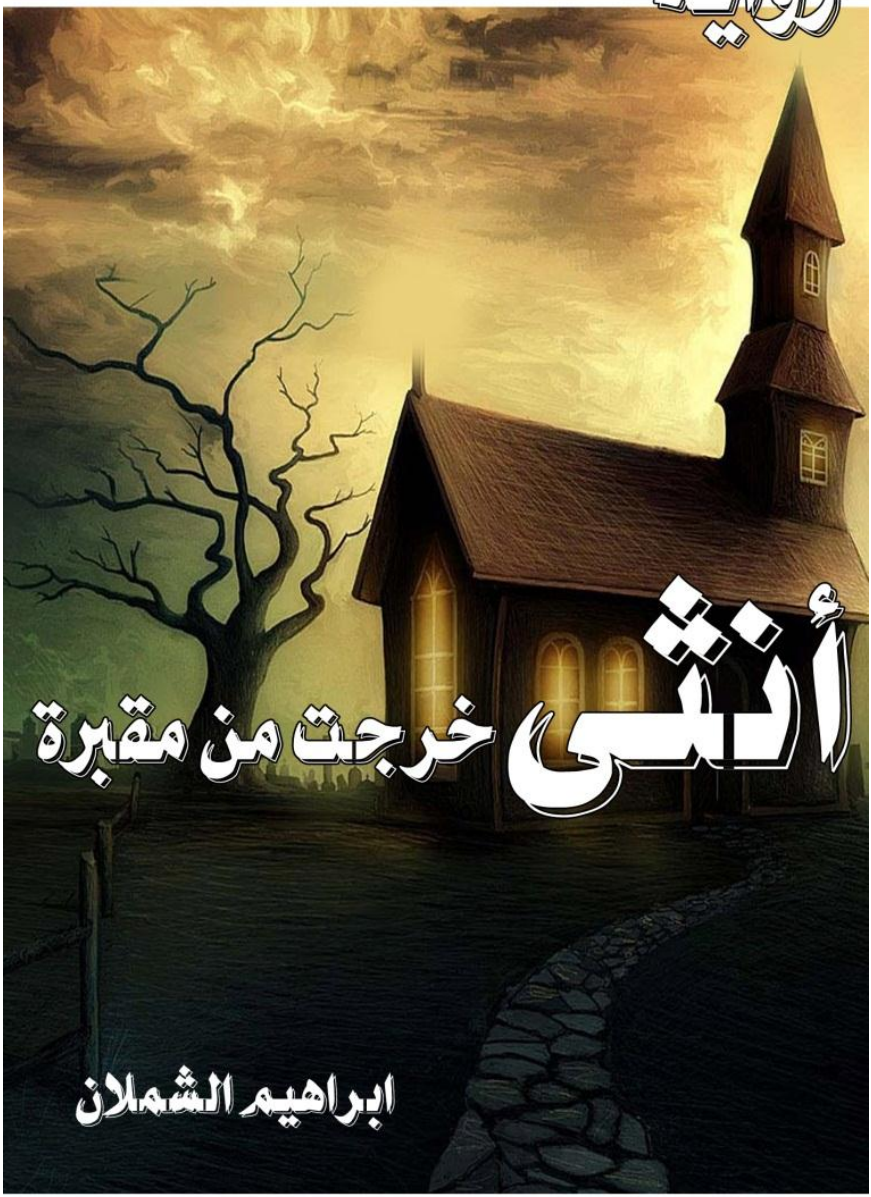

أُنثى خرجت من مقبرة

ابراهيم الشملان

رواية

أنثى خرجت من مقبرة

ستغيّرين مجرى حياتي

حين نظرتُ إلى عينيكِ وجدتُ فيهما طموحاتي

"حبيب لا يغيّر مجرى حياتك ليس جديراً بالثقة "

إبراهيم الشملان

قال إبراهيم النظّام :

و نشكو بالعيونِ إذا التقينـــا فـنـفـهـمـهُ و يعلمُ ما أردْتُ

أقـولُ بمُقلتي أنْ مـتُّ شـوقـاً فيوحي طرفهُ أنْ قدْ علمْتُ

الزمن : في قديم الزمان عندما كانت الحياة بسيطة ..

المكان : لم تكن هناك حدود للقوة ..

الأبطال : إيليا وندى

الخاسر : إيليا

إهداء

" إلى كل أنثى نامت على سريرها وابتلّت وسادتها بالدموع فشعرت بها الجمادات واستلذت بأحاسيسها الطبيعة واستمعتْ لصدى بكائها بين الجبال غير أنها لم تصل إلى أذني زوجها رغم وجوده بجوارها .. "

" إلى كل شجرة قُطعت ثم انتزعوا منها هذه الصفحات ، أقدّم اعتذاري حقاً "

" إلى أصدقائي الذين ابتعدتُ عنهم وابتعدوا عني ، إلى حبيب لم ينتظرني ، إلى مجتمعٍ نسيني ، إلى نسيمٍ باردٍ قادمٍ من الجنوب بعطر الاشتياق ينفحُ ، إلى تلك العيون النادمة التي ظلت لذكراي تسفحُ "

أهديكم عملي هذا

بكل حب

ما أصعب أن يعيش الإنسان متعلّقاً بأذناب الأعذار ، سبقته الطير إلى طلب الرزق والمعاش وعجز عن طلب ذلك لنفسه ، لا يسقي قطرة ولا يقطع شعرة . .

كانت في الخامسة عشرة حين توقف قلبها عن النبض ، لقد أخرجت آخر أنفاسها ، و راحت النساء يجهّزنها لينقلوها إلى مثواها الأخير. كانت السماء كئيبة جداً ، و في أقصاها غيوم سوداء قادمةٌ بغضب يزحفُ ظلّها بهدوء نحو المقبرة . حملوا الفتاة على أكتافهم ، وضعوا أيديهم المليئة بالذنوب على تابوتها ، وتقدّموا بهدوء شديد ، كانت الأرض مليئة بالطين و سبخاتُ الماء الصغيرة تملأ الشارع الضيق المؤدي إلى المقبرة ، و كلما تقدّموا قليلاً ازداد التابوتُ ثقلاً حتى انقطعتِ الأكتافُ فسقط التابوت على الأرض الطينية ، و تطايرت قطرات الماء المملوءة بالطين فرسمت على وجوههم لوحة من البؤس والضجر ، انشغل الناس بمسح الطين عن وجوههم و لم ينتبهوا إلى ما حدث بعد سقوط التابوت . .

صاح طفلٌ كان ينظر إلى التابوت :

انظروا ! ! لقد خرجت إحدى يديها من التابوت ، اقترب بعضهم ليعيد يدها إلى التابوت ، حرّكتِ الفتاة أصابعها على مرأى جميع الناس الذين كانوا بالقرب من التابوت .

فزع الناس كثيراً و ابتعدوا عنها من شدة الخوف ، و ركض بعضهم بعيداً بينما توقّف آخرون لفضولهم ، لكن شيخا كبيراً قريباً من الموت و آثارُ الهرم تكسو جسده لم يبالِ بما حدث فاقترب منها ، تفحّصها و رمقها بعينيه اللتين اختبأتا خلف شعر الحاجبين الأبيضين ، فعلم أن الروح قد عادت إليها ، نظر إلى الناس حوله وهم ينتظرون منه كلمة أو أي حرف و قال لهم :

لا تقلقوا ، لقد عادت إلى الحياة مرة أخرى ، لقد عادت الروح إليها ، مكتوبٌ في عمرها عدد من السنوات لم تعشها بعد ، ستعود لإكمالها .

لقد تحدّث إليهم بهدوء و بدأ يطمئنهم وسط ذهول عظيم فلم يسبق لأحدهم أن رأى ميتاً يعود إلى الحياة أمام عينيه . لقد كانت المرة الأولى التي يرون فيها هذا . ثمَّ ضحك الشيخ وأخذ عصاه وغرسها في الأرض ليتوكّأ عليها .

اقترب منها الناس ففتحت عينيها ، رأت سماءً غاضبة و عيوناً ترمقها ، ثمَّ رفعت رأسها لتجد نفسها في صندوق خشبي ضيقٍ كادت عظامها تختلف فيه و تتعارك ، حاولت أن تنطق بكلمة أو بسؤال فلم تستطع ، عادت روحها لكنها فقدت بعضاً من حواسها ، فقدتِ السمع و النطق ، حاولت الصراخ لكنها لم تعد قادرة على ذلك فأغمضت عينيها وحملها الناس مرة أخرى إلى منزلها .

عجباً ! ! ! لقد حملت على الأكتاف ذهاباً وإياباً . .

" لا يختلف طعم الموت في الحالتين ، في حالة أن يكون الميت عظيماً أو في حالة أن يكون الميت حقيراً ، إنه الموت الذي لا يفرّق بين هذا وذاك " .

بعد فترة من الزمن عادت إليها حواسها وما فقدته من قدرات في ذلك الوقت ، لقد كانت تتحدث طوال تلك السنوات عن الموت و عن الخروج من هذه الحياة ، تقول لمن حولها :

- لقد شعرتُ بكم حين رفعتم التابوت لتأخذوني إلى قبري ، كنتُ أستمع إلى همهمات بعض الناس ودمدماتهم ، كان بعضهم مستاء جداً عندما أجبروه على القدوم في ذلك الطقس البارد ليشهد دفني ، و كان بعضهم يبكي لأنه تذكر أولاده الذين ماتوا منذ زمن ، بينما همس بعضهم لنفسه قائلاً : ليت بناتي يرحلن كما رحلت هذه الفتاة . إنهم لا يحبّون البنات ، يرغبون حقاً في دفنهن جميعاً كما كانوا يفعلون في زمن السبي والعبيد ، لقد خافوا أن تسبى فتياتهم كما حدث في كثير من القرى من قبل .

- لقد كانت فرصة لي لأكتشف الكثير ، إني أستمع إلى رغباتهم وأفكارهم كما تستمعون إلى كلماتهم بآذانكم هذه . .

عاشت هذه الفتاة بعد ذلك زمناً ولم يتقدم لخطبتها أحد ؛ إنهم يخشون حقاً أن يقتربوا منها إذ كانت ترى في الناس ما لا يرونه ، فقد أضيف إلى حواسها حاسة أخرى ، إنه القلق والشعور بالضيق لرؤية بعض الناس حين تراهم في السوق أو في منزل أبيها أو في أي مكان ، كانت تستمع باهتمام إلى دمدماتهم و إلى أفكارهم و إلى إحساسهم بالخطر و إلى شعور الكآبة في قلوبهم ، إنها فقط تشعر ويخيّل إليها كل هذا ، لقد كانت تفضل الموت على أن ترى كل هذا .

ذهبت ذات مرة إلى السوق و في طريقها شاهدت أمّاً تحمل طفلها و رأت فيها كآبة وحزناً رغم ابتسامتها ، توقفت قليلاً و أخذها الشرود بعيداً ، ثم التفتت نحو اليمين فرأت

رجلاً يحمل كيساً على ظهره ، لقد كان كثيف الشعر و قد غطّت لحيته معظم وجهه حتى أغرقت فمه و عنقه ، شعرت بأن هذا الرجل فقد إحدى بناته ثم فقد زوجته ولم يعد يبالي بالحياة أبداً ، لكن صوت الخيل وهي تجر عربة خلفها أعادها إلى وعيها من جديد حين صاح بها السائق : ابتعدي عن الطريق ! ! . لقد قالها بغضب . .

ثم رأت امرأة وضعت أمامها صندوقاً من الفاكهة لتبيعه واحتضنت طفلها وأخذت ترضعه وتلاعبه ، لقد أحسّت بأنها قد ملّت الحياة و فقدت الكثير ، لكنها لازالت تقاوم لأجل طفلها فقط . أُصيبت الفتاة بالصداع ، همست في داخلها :

لقد أخفى الله عنا علم الغيب لأننا ضعفاء ، و لو رأينا القليل منه لازددنا بؤساً لما نراه من آلام . هكذا كانت الفتاة تهمس لنفسها كل يوم وليلة ، فمجرد إحساسها

بآلام الناس أصابها بالصداع فكيف لو علمت شيئاً من الغيب ؟ .

رجعت إلى بيتها وظلّت حبيسة غرفتها حتى ماتت ، و انتشر خبر موتها مرّة أخرى و تناقل الناس ذلك لكنهم لم يصدقوا بل تخلف كثيرٌ منهم عن جنازتها خوفاً وفزعاً و تركوها في التابوت أكثر من ليلتين كي تطمئن قلوبهم . و للمرة الثانية قدموها إلى المصير ذاته تحملها أيديهمُ المذنبة ليدفنوها بسرعة حتى لا تعود الروح إليها مرة أخرى فتوقظها من جديد .

الفصل الأول

ما فائدة القلم إن كان مداده دم القلب ..؟

ما فائدة الكتابة إن كانت أعين من نكتب لهم عمياء لا ترى ..؟

الحب كالظل يسير معنا لا يعرف المراوغة .

في قرية أخرى قريبة من هذه القرية

كانت ليلة شديدة السواد ، مجموعة من اللصوص وقطّاع الطرق اجتمعوا في الغابة بالقرب من تلك القرية ، لقد بدؤوا بالشرب في أول الغروب و أوقدوا ناراً و رقص بعضهم وصفق الآخرون ، بومةٌ ابتعدت عن هذا الصخب ترقبهم من بعيد ، و طيور غمست رؤوسها في أجنحتها تحاول تخفيف الضجيج ، و سماءٌ غاب عنها القمر. وقف زعيمهم فتوقّف الصخب في منتصف الليل ، كان رجلاً

غليظاً وضع خنجراً على خاصرته وبيده سيف جفّت عليه الدماء ، لقد تألّبوا جميعاً واجتمعوا لمهاجمة هذه القرية يبحثون عن الفتيات ، يسرقون الأموال ويقتلون الرجال لتصبح النساء والفتيات ملكاً لهم .

عاشت تلك القرية بسلامٍ منذ زمن طويل ؛ فزعيمها رجل كبير في السن لكنه ثري و ذو مكانة كبيرة ، و كان الناس يحبّونه كثيراً لما له من أفضال عليهم ، فقد ساعدهم كثيراً خلال تلك السنوات . لم يكن أهل القرية على علم بما سيحدث لهم في تلك الليلة ، و لم يعلموا أنها ستكون النهاية ، كانت ليلة شديدة البرد و الناسُ في بيوتهم متدثّرين مع نسائهم وأطفالهم ، أحاط اللصوص بكل مخرج لهذه القرية وتجهّزوا لغايتهم ، و لم يستيقظ الناس إلا حين سمعوا صراخاً من جنوب القرية و رأوا تصاعد الدخان واشتعال النيران .

مضت تلك الليلة باحتراق القرية ونزول المطر من السماء . . فماذا حدث ؟

عودةٌ إلى القرية الأولى . . .

في تلك الليلة ازدحمت السماء بالغيوم وبكت حتى أغرقت الوادي بما يحوي من قبور ، و راحت الأشجار تعبثُ بأوراقها وتعزف بأغصانها والريحُ تضرب بالأوراق وتنتقم من الحياة . لقد حزنتْ الطبيعة على تلك الفتاة ، فبكتِ السماء وعصفتِ الريح وأغلق الناس أبواب بيوتهم و كلما أشعلوا سراجاً هبّت ريح قوية تطفئ السرج ، وبدأ الأطفال بالبكاء و اختلطت أصواتهم بصوت الريح .

ما زالتِ السماء تحشرُ الغيوم الداكنة في منظر مخيف لكن الناس اعتادوا رؤية هذا المنظر في شتائهم ، لطالما أفرغ الشتاء غضبه على الأرض بأمطاره وسيوله و رعوده ، و بدأت الأشجار تميل مع عصف الريح و ترتجف أوراقها مصدرة حفيفاً يخلع القلوب ، و تتقاتل أغصانها كأن

معركة من سيوف خشبية قد حدثت وسط ارتجاف الأوراق ، و تغيّر لون الأرض بعد أن خضعت الأعشاب والزهور لسلطان الريح ، و راح الغمام يسقي قمم الأشجار و الصخور و يعبث بالنهر و يمنعه من الاسترخاء .

لقد خلّفتِ السماء طابوراً من الغيوم المحمّلة بالأمطار و الرعود حتى أصبحت الرؤية معدومة ، و شلالات المطر تنزل من السماء وتضرب الأرض كجلّاد يريد الانتقام ، و بدأت سُقُفُ المنازل تسرّب بعض قطرات المطر المتسللة و الريح تضرب الشبابيك ، بينما الناس من نافذة إلى نافذة يحاولون إضافة بعض الأخشاب لمنع الريح من كسرها . لقد شغلتهم هذه العاصفة كثيراً و زلزلت قلوبهم حتى كادت أن تخرج من سجون صدورهم ، فتارةً تعصف من الجنوب وتارة أخرى تعصف من الشرق أو الشمال ، إنها لا تتوقف أبداً . . .

بداية الحكاية . . ،

كانت العائلة قلقة جداً على ولدها الشاب المدعوّ إيليا ، فهو يعمل بالقرب من الجبل في طاحونة جده ، و هو شاب في الثلاثين من عمره ، ملامحه توحي بمرارة الحياة وصعوبة العيش ، يرتدي ثيابا خشنة ترهق الجسد ، متصوف لا تروق له الحياة اللينة ، هجر قريته و عاش وحيداً بالقرب من الجبل ، يمضي معظم وقته في العمل نهاراً فإذا غربتِ الشمس صعد الجبل و اختفى ساعة بين الصخور ثم عاد إلى الطاحونة .

وحين هبّت العاصفة أصاب القلق والديه اللذين كانا يعيشان في القرية أسفل الوادي ، لم يكن لـ إيليا أي إخوة لكنه منذ نعومة أظفاره عاش مع جده في تلك الطاحونة و اعتاد على هذه الحياة ، و بعد موت جده لم يعد يهتم بالحياة و لا بالناس و فضّل العزلة على مخالطتهم .

لقد تساءل كثير من الناس عن ذهابه نحو الجبل في كل مساء ، لكنهم لم يهتموا كثيراً بهذا لأن الجبل مخيف مليء بالهوام و الوحوش ، و الشائعاتُ كثيرة في وجود تلك الحيوانات و الأفاعي الضخمة ، لهذا كان كثيرٌ من الناس يفسرون ذهابه إلى الجبل بأنه عبادة كان يلتزمها كجده من صلاة ودعاء .

في قريته الصغيرة أسفل الوادي حكايات كثيرة تظهر فظاعة البشر في الحياة و كأن السماء حين تعصف بتلك الأمطار و الرياح تخبر أهل الأرض بفسادهم . لقد كانوا في ذلك الزمان في أبشع حال عرفتها البشرية ، في ذلك الزمان الذي لم يعرف فيه للمرأة أي قدر أو قيمة حيث انتشرت الحروب و كثر سبي النساء . لقد كان الكثير من قطاع الطرق و اللصوص يسرقون الأموال و الفتيات الجميلات ليتم بيعهن للأثرياء من التجار ، و قد تصل الفتاة من المغرب إلى المشرق لتقوم برحلة عبر الصين ونواحيها و تطوف البحار السبعة و تعبر أعماق الغابات .

كان ذلك في عصور الشهوة وانعدام السيطرة على الغرائز ، كانوا يمارسون الظلم والتهميش والقسوة بكل طرقها على النساء حتى سألتِ المرأة نفسها :

هل نحنُ من البشر ! ؟ ؟

و انتشر في بعض القرى عاداتٌ أخرى من أقبح العادات ، فقد كانوا يبعدون النساء عن مكان نومهم خوفاً من انتقال ضعف المرأة إلى الرجال عن طريق أنفاسها . لم تكن قصصاً خيالية ، هكذا كانوا يرون المرأة .

لم يكن في قرية ايليا و القرى المجاورة هذا الرق و الاستعباد لكن هذه القرى كانت تعاني في ذلك الوقت من سرقة النساء و الاتجار بهن بعيداً ، و كانتِ النساء يعانين من الحزن ما لا يطيقه الرجال إذ إن القليل من النساء مَنْ كنَّ يطلبن العلم و يتعلّمن ، و مضى وقت طويل على هذا حتى قام شيخ كبير فيلسوف ببذل معظم وقته في تعليم الناس و الحث على إعطاء المرأة حقوقها في التعلُّم ، أراد

بذلك أن تتعلم النساء كما يتعلّم الرجال في قرية ليست بعيدة جداً عن قرية إيليا ، و كان لهذا الشيخ الكبير حفيدةٌ تربّت على يديه و هي أصغر سنَّاً من إيليا ، لقد تعلّمت الكثير على يدي جدها ، تعلمت القراءة و الكتابة و حب العلم حتى قضت معظم وقتها في قراءة الكتب و العلوم ، فقد ورث جدها خزينة ضخمة من الكتب القديمة عن أجداده و جمع المزيد من الكتب خلال فترة طويلة من رحلاته إلى الشرق و الغرب ، كان يجمعها بلهفة ، و الآن باتت حفيدته الشابة هي الوريث الوحيد لهذه الكتب . لم تختلط هي الأخرى بالناس بل كانت دائمة التأمل و القراءة و الاستمتاع بإجابات جدها على أسئلتها الكثيرة حتى نالت من العلم و المعرفة و الفلسفة الكثير .

كان الحزن يملأ القلوب في ذلك الزمان البعيد عن التقنية الحديثة والتكنولوجيا المثيرة ، فالناس يمضون معظم أوقاتهم في العمل ثمَّ الاسترخاء على ضفاف الأنهار أو تحت ظلال الأشجار أو في شواء السمك تحت ضوء القمر بعد

يوم شاق مليء بالعمل . في ذلك الزمان الذي لم تكن فيه العملة الورقية إلا في الصين و كان الناس يتعاملون بالذهب و ما شابهه من معدن ثمين أو زاد من طعام .

لم تكن الكآبة في ذلك الزمان كالكآبة في زماننا من الحب والغدر والخيانة بل كانت من طلب العيش والجوع والإحساس بظلم الحياة . فالفقراء يجتهدون في العمل بينما الأغنياءُ ينفقون جهود الفقراء تحت ضوء القمر في ليلة ساحرة مع المعزوفات و الرقص مع الفتيات الجميلات ، هكذا كانت حياتهم في ذلك الزمان .. .

بعد أن أحرق اللصوص تلك القرية ولم ينجُ منها أحد سوى حفيدة ذلك الشيخ الكبير التي تعلّمت الكثير من جدّها فغدتْ فيلسوفة شابة ، هربت دون أن يشعروا بها ، دخلت في أعماق الغابة ، ثم سارت طويلا حتى وصلت إلى البحر ، فوقفت أمامه و قالت :

- فقدتُ ألواني ، لم أعد أجد لذة الألوان ، أصبح كل شيء عتيقاً مملاً تافهاً ليس له معنى ، و ليته يكون كجمال الماضي ، لقد أصبحت الحياة مملة فقط . إن شريط الذكريات يمر أمام عيني ، هناك بعض الثقوب و بعض الغبار و بعض الصور المعطوبة فقط .
- أحسدك أيها البحر ؛ في أعماقك حياة رغم الظلام لكن أعماق فؤادي مظلمة دون حياة ، رغم ظلام قاعك تحتضن الكائناتِ فيه فهي تسير باطمئنان مع ذلك الظلام . في الأعماق فؤاد لا يريد أن يرى ، فقد انتهت لذة الرؤية ، كلها رؤىً بائسة .
- لقد رأيتُ بؤساً كثيراً في هذه الحياة لكني أزدادُ سلوّاً حين أتذكر أن معظم الناس من حولي يحملون في داخلهم من الآلام والذكريات الحزينة ما أحمله أنا أو أكثر .

- في داخل كل واحد منا ما يكفيه ليعيش كئيباً محزون الفؤاد ، فالحياة مليئة بالأوهام و الزيف و نحن فيها أموات رغم امتداد الروح في خلايانا . نخشى الموت لأننا لم نحقق شيئا مهماً في حياتنا ، و حقيقة هذه الحياة أنها كذلك تحمل في داخلها هؤلاء الحمقى ، فعندما أقرأ قصص الحضارات القديمة و كيف بنيت على العظام و على إزهاق الأنفس وعلى الطموحات و حب العظمة ، و كيف بنيت بقوة تلك العقول التي أنفقت كل ما تملك من وقت لخدمة هذه الحضارات أشعر أنها كانت أزماناً مخيفة حقاً ، أزماناً تُمحى فيها حضارة لتقوم حضارة أخرى ، و تقتل فيها نفوس لتولد أنفس أخرى . عرفتُ أن هؤلاء لا يتعلّمون وأن القليل منهم قد تعلم كيف يعيش بسلام مع الناس و أنَّ الكثيرين هم الحمقى حتى أخبرنا الرب أننا لو

أطعنا أكثر الناس لأضلونا عن طريق السعادة الحقيقي فالأكثرية هم الحمقى .

أكملتِ الفتاة المسير بعد هذه الكلمات ، إنها تشعر بالكآبة حقاً . سارتِ طويلاً لكنها لم تجد أي مأوىً حين هبّت العاصفة بشدة ، لقد كانت تضع يديها على عينيها وتسير ببطءٍ شديد ، كانت الرياح عاتية و المطر يضربها كالسهام . قالتْ في نفسها :

- لقد سئمتُ من البكاء ، لم أعد أفرّق بين الدموع وقطرات المطر ، و لم أعد أهتمُّ فيما إذا وجدتُ حياة أخرى أم لم أجد .

توقّفت عند شجرة كبيرة واستندت إلى غصن كسرته الرياح ، و الظلامُ يغطي السماء ويحجب كل ما فوق الأرض ، عادت لمحاورة نفسها :

- أشعر بالجوع إنني جائعة جداً ، أخذت تمضغ بعض أوراق الشجر ، كانت أوراق شجرة أرز كبيرة . و بعد أن مضغت تلك الأوراق أغمضت عينيها ونامت ليلتها تلك إلى منتصف اليوم التالي و ملامحُ البؤس مرسومة بل محفورة في جسدها .

استيقظت و لمَّا تهدأ العاصفة ، لم تكن تعلم أبداً أنها نامت بقية ذلك الليل إلى منتصف النهار ، استندت إلى الغصن مرة أخرى ثم وقفت و مضت في سيرها نحو المجهول نحو البؤس أو النعيم ، لا تدري في الحقيقة أين تسير ، إنه شعور يشبه شعور من يفقد محبوبه و لا يعلم هل كان على صواب حين بعثر أحاسيس الحب أم كان مخطئاً مجرماً . ازدادت الريح هيجاناً حتى وصلت الفتاة إلى مكان مرتفع و أغمي عليها من شدة الجوع و هي لا تعرف أيُّ أرضٍ تضمُّها ؟ .

ثم هدأتِ العاصفة . .

مضت ليلة أخرى إثر تلك العاصفة و فاضت المقبرة بأمطار السماء ودخل الماء إلى أعماق القبور فأغرق العظام و غسل الأكفان . لقد كانت ليلة بدرية مضيئة بيضاء على الرغم من وجود بعض الغيوم السوداء التي تراقب الأرض و الناس من بعيد لترى البيوت من الأعلى وما تحويه من هموم ، و ترى الشوارع و ما تحتضن من بؤساء و مشردين . القمر يضيء المنازل و الطرقات و الغيومُ ترى بوضوحٍ مآسي الحياة و تتزاحم حتى بدأ شعاع القمر يتلاشى خلفها . و في وسط المقبرة و على أعلى قمة فيها فتحت الأرض بابها لتخرج إلى الحياة حكاية ، كانت امرأة مغطاة بثياب سوداء ملطخة بالطين ، لقد ارتوت بالمطر و خرجت إلى الحياة و انتفضت كما ينتفض العصفور من بلل المطر ، لقد كانت تلك الفتاة الفيلسوفة التي أُحرقت قريتها و مشت على شاطئ البحر و أكلت من أوراق شجرة الأرز الكبيرة ، هي التي أغمي عليها وسط القبور دون أن تعلم

أنها في مقبرة ، وأعيتها الحياة حتى فقدت الإحساس بالخوف وسلبت منها تلك الحاسة .

لقد خرجت بالقرب من قبر تلك الفتاة التي ماتت مرتين ، هل يُعقل أن تخرج من قبرها و تعاني كما عانت تلك الفتاة الميتة و تسير مسافات طويلة ليُغمى عليها فتسقط على تراب هذا القبر الكئيب ؟ .

نظرت حولها فإذا قبورٌ غارقة بالماء ، أخذت تعصر ثوبها وتزيل عنه الطين ثم بدأت تسير و خيوط القمر ترتسم على ثوبها الأسود المبلول ، تسير ببطء شديد و الطين يسقط من شعرها و يديها منكسةَ الرأس مرهقةً ، تقف لحظات تمسح عن وجهها الطين و تنظر إلى السماء بهدوء ثم تبتسم تكمل السير ، لقد كانت تسير على ضوء القمر دون أن تعلم إلى أين ستذهب ، كانت ترتفع رويداً رويداً عن الأرض و لم يكن ثمة أضواء أخرى لتعرف أين تتجه ، و فجأة آنستْ

نوراً بالقرب من الجبل فاتجهت إليه (إنها تتجه نحو الطاحونة التي يعيش فيها إيليا)

أصوات الضفادع تملأ الأرجاء وكأن خطباً ما قد حدث عند اكتمال القمر . كانت هائمة على وجهها تتذكر الماضي و تنزل من عينيها دموع ساخنة على الرغم من برد الشتاء ، تذكرت جدها الشيخ الكبير الذي حزنت عليه أكثر من حزنها على والديها ، لم تكن عديمة البر بوالديها لكنها عاشت في كنف جدها و تعلّمت الكثير على يديه و هربت من تجار العبيد بعد أن أحرقوا قريتها ، و رأت الناس يُقتلون أمام عينيها و من بينهم جدها الشيخ و جميع أقاربها فهربت مسرعة باكية عملاً بوصية جدها الذي كانت آخر كلماته لها :" اهربي يا ابنتي و لا تسمحي لهم باستعبادك " لقد سمعت هذه الكلمات و حفظتها جيداً " لا تسمحي لهم باستعبادك ".

الفصل الثاني

الماضي يبدو جميلا جداً لأنه " انتهى و لن يعود " و لو عاد لمَا كان جميلاً ؛ فقط لأن الأشياء التي تعود كثيراً ما تفقد عذوبتها . لا بد أن ترحل أيها الإنسان بلا عودة كالماضي و تترك خلفك أثراً يدل عليك حتى تبقى سيرتك كبتلة الزهرة البيضاء نقيةً شفافة عطرة . اتركِ الماضي يدفن الذكريات والقصص ، لا تقف في وجهه فهو أدرى بعمله ، يعرف الماضي تماماً ما يجب تخليده وما يجب محوه ؛ فدروس الحياة في الماضي أكثر من الحاضر المجهول . فالذي مضى فات ، و الحاضر في الغيب غير معلوم ، و لنا الساعة التي نحن فيها ، نمرح أو نجتهد أو نحزن ، هي الساعة فقط .

نحن نحلمُ كثيراً . .

ونتمنى أكثر . .

وتختلف الأحلام و الأمنيات من فصل إلى فصل و من ليل إلى ليل (و الأحلام لا تنتهي) ، و بين اضطهاد نفسي قاتل و حلم لا يتحقق و رغبة لا تثمر نموت كثيراً و يحيينا الله بالأمل . نولد فقراء أو ميسوري الحال لكن بلا جدوى ، قد نرى في كثير من الأحيان أن المال سبب في تحقيق أحلام كثيرة و نتخذه عذراً لنمارس رياضة الفشل ، و نتمسك بالوهم و نخادع أنفسنا به و لا نعلم أن التفكير بالاجتهاد ثم العمل على تحقيق تلك الرغبات يكسبنا نظرة الدنيا إلينا من بعيد حتى تقترب منا رويداً رويداً ثم تقع بين أيدينا دون عناء ، (طلقوا دنياكم لترغب بكم ، فالدنيا تعشق الرجل إذا طلّقها) و غالباً منْ يسعى وراء المال برغبة ملتهبة يستحوذ على المال من غير مصدره المشروع و يسلك طريقا معوجّة .

استمرت تلك الفتاة في المسير ، و في ظلام الليل لا ترى إلا ما يضيئه البدر لها حتى وصلت إلى الطاحونة فجثت على ركبتيها أمام الباب و وضعت جبينها عليه ثم راحت تضربه

بيديها ، كان إيليا في تلك اللحظة يصلي و يتعبّد ، و عندما سمع طرقات الباب تعجّب ، من سيأتيه في هذا الليل !؟ قام بحذر شديد اقترب من مقبض الباب ثم فتحه فأصيب بالذهول عندما سقطت المرأة على وجهها تحت قدميه مبللةً بالماء مقنّعةً بالطين ، لقد شعر بالخوف لأول مرة ، اقترب منها و تفقدها فقال في نفسه (إنها فاقدة للوعي . .) حملها بين ذراعيه و أدخلها إلى الطاحونة و جعلها تستلقي على الأرض نائمة على وسادة صنعها من القش و وضع عليها قطعة من قماش ، ثم حفر حفرة صغيرة ووضع حولها الأحجار و أوقد ناراً لتجد المرأة بعض الدفء و جلس على صندوق خشبي و وضع الشاي على تلك النار ، كان الشاي مصنوعاً من أعشاب جبلية إذِ اعتاد إيليا أن يحتسي تلك الأعشاب لما فيها من فائدة لجسده وروحه . و لما شعرت المرأة بالدفء أخذت تفيق و تستعيد بعضاً من عافيتها إلى أن سمع إيليا أول كلمة لها ، قالت بصوت ضعيف : (إني جائعة) لقد كان صوتها رغم

ضعفه كالموسيقى الهادئة ، و كانت تنظر إليه دون خوف لكنها نظرات الضعيف إذا عجز عن فعل أي شيء . لم يكن لدى إيليا سوى كسرات من الخبز اليابس قدّمها و سكب لها كوباً من تلك الأعشاب و سقاها و أطعمها ، لقد رأى في عينيها إرهاقاً شديداً فأخذ جبّة من الصوف كانت لجده و غطَّاها بها فقد كانت ترتجف حتى بعد أن عمَّ الدفءُ المكان . لم يتحدث إليها أو يسألها عن شيء بل ابتسم في وجهها ثم أشار بيده أن ترتاح .

كانت تأكل كسرات الخبز وتشرب الشاي و هي شاردة الذهن تنظر إلى النار ، لقد تذكرت النيران التي أشعلها اللصوص في قريتها فنزلت دموعها و اختلطت بالشاي ، و لما انتهت من طعامها استلقت من جديد و نامت بهدوء و عاد إيليا إلى مصلّاه أغمض عينيه و بدأ بالتفكر لساعة ثم قام من مصلّاه و أخذ بعض القش و وضع عليه رداءً ثم نام عليه بالقرب من النار و مضت تلك الليلة ، كانت ليلة هادئة ، و ما إن طلع الفجر حتى استيقظ إيليا من نومه فلم

يجدها في مكانها بل لم يجد أي آثار لوجودها فكوب الشاي في مكانه داخل الصندوق و وسادة القش في مكانها و جبّة الصوف قد علّقت على الجدار تماماً كما كانت من قبل و ليس هناك أثر لتلك المرأة ، قال في نفسه : هل كان حلماً . . ؟ ؟

ثم وقف و ضغط بيديه على قدميه المتعبتيْن من كثرة الصلاة و فتح الباب و تقدم نحو شجرة كبيرة بالقرب من الطاحونة ، و راح يردد بعض الكلمات التي كان يرددها كل صباح منذ سنوات :

أيها الصباح العاشق للحب و السعادة . .

يا ناشرا عبير أنفاسك الباردة . .

ارتجفت قطرات الندى بشتائك. .

وغنّت الأطيار أجمل الأشعار بروعة أنفاسك. . .

و تحت صخورك اختبأت الأمنيات . .

اليوم لنا فيك رغبة و طموح. .

اليوم بهدوئك نداوي الجروح . .

ثم جلس مستنداً على ساق الشجرة و نظر حوله إلى الوادي وإلى الجبل وإلى السماء فسمع صوتاً من خلف الشجرة و كأن قدماً داست على غصن فانكسر فقام فزعاً من مكانه و نظر خلفه فماذا رأى ! ؟ ؟ .

لقد رأى تلك الفتاة تنظر إليه بصمت كقطة خائفة ، قال لها :

- **لقد أخفتِني .. ماذا تفعلين هناك ، ظننتُ أنك مجرد حلم حين لم أجدك ، اقتربي واجلسي هنا .**

كانت الفتاة خائفة جداً كأنها فاقدة للذاكرة لكنها لم تكن كذلك بل ربما كان الخوف مما رأته في تلك الليلة من نيران وعواصفَ و قبور . .

اقترب منها إيليا و قال لها :

- لا تخافي (ثم مد يديه وأخذ بيديها وأجلسها في مكانه وجلس هو بعيداً عنها ونظر إليها) و لمّا شعرت بالاطمئنان و الأمان ابتسمت ثم نزلت دمعة من إحدى عينيها و قالت :
- أرجوك أعد الغناء فتلك الكلمات قد أعادت إلي ذكرياتٍ كثيرة و جعلتني أشعر بالقوة من جديد ، أرجوك ..

نظر إيليا إليها بصمت وسط حالة من التعجب والاندهاش من طلبها و قال :

- أتعنين هذه الكلمات :

أيها الصباح العاشق للحب والسعادة

يا ناشراً عبير أنفاسك الباردة

ارتجفت قطرات الندى بشتائك

و غنّت الأطيار أجمل الأشعار بروعة أنفاسك

و تحت صخورك اختبأت الأمنيات

اليوم لنا فيك رغبة وطموح

اليوم بهدوئك نداوي الجروح ..

- **نعم هي ، أرجوك أعد علي تلك الكلمات مرة أخرى ..**

لقد رددها مراراً حتى حفظتها و بدأ ضوء الشمس يظهر في الأفق ؛ إذ إن إيليا كان في مكان مرتفع و لم يكن هناك حاجز بينه و بين ضوء الشمس على عكس من كان في أسفل الوادي .

بعد أن ردد تلك الكلمات ،و رأى فيها الهدوء و الاطمئنان قال لها :

- **رديها حتى لا تنسيها و انتظريني هنا ، سأصنع الشاي وأعودُ حالاً ، لا تهربي أو تتركي مكانك ، سأعود .**

ذهب إيليا إلى الطاحونة وصنع الشاي ثم أخذ جبّة الصوف و عاد إليها و قبل أن يجلس وضع الشاي على صخرة قريبة ثم أخذ الجبة و وضعها على ظهرها و كتفيها ثم قدم لها كوباً من الشاي الساخن .

- أنتِ الآن في ضيافة رجل كئيب ، اشربي الشاي فليس لدي أفضل منه ، الناس يشربون الحليب و يأكلون السمن في الصباح ، لدي بعض كسرات الخبز و هذا الشاي ، لقد قطفتُ هذه الأزهار من وسط الجبال ،،إنها مفيدة جداً ، اعذريني ثرثرتُ كثيراً ، تفضلي . .

بدأت الفتاة بالابتسامة ثم ضحكت و وضعت يديها على فمها . .

أصيب إيليا بالإحراج ، فتنحنح ثم قال :

- إن السماء صافية هذا اليوم ، لقد كانت عاصفة عنيفة ، انظري إلى الغابة إنها في أسوء حال لكن الشمس قد بدأت تشرق و تَهَبُ الدفء للناس . .

ثم جلس بجوارها ولم يسألها عن أي شيء لكنه بدأها الحديث و قال :

- انظري إلى تلك القرية في أسفل الوادي ، إنها قريتي ، (ثم ضحك) لكني لم أشعر بأني أنتمي إليها أبداً.

أتعلمين لا أحد يعيش بالقرب من هنا سواي و لا يأتي أحد لزيارتي إلا حين يحتاج إلي أو يأتي من أضاع طريقه مثلك ، لا أظن أنك من هذه القرية و لا من القرى القريبة أيضاً . مع ذلك يا صغيرتي أنا لا أحب أن أختلط بالناس و لا أحب أن أجلس معهم ، أنزل في كل أسبوع إلى الوادي و أزور والدي ليلة واحدة ثم أعود إلى هذا الجبل و لا أحب أن أتدخل في حياة أحد أو أتطفل على أحد .

بدأت الفتاة تطمئن أكثر بعد هذه الثرثرة الطويلة ، شعرت بأنه رجل مسالم ، لم يكن مخيفاً فقد رأت منه العبادة والتأمل ليلة أمس ، لقد كانت تفتح عينيها قليلاً و تنظر إليه حين كان يرفع يديه بالدعاء ، إنها تشعر بالأمان ، ثم بدأت بالكلام فقالت :

- لقد لاحظتُ أنك لا تحب التطفل حتى إنك لم تسألني عن نفسي و اسمي ! ؟ ؟

- أتعلمين ! ؟ ؟ لم أفكّر بهذا ! ؟ ؟و لم يخطر على بالي هذا السؤال (ثم ضحك) و قال لن أخسر شيئا سأسألك الآن ما اسمك يا صغيرتي! ؟ ؟

- اسمي ندى و لأكون فتاة (نكدية) في أول لقاء سأخبرك أني فتاة تذوقت طعم الظلم ونادیتُ و صحتُ ولم يستمع أحد لندائي ، ليس لي أحد في الحياة ، لقد هربتُ من القرية منذ ثلاثة أيام ، تارة أنام على الشاطئ وتارة أنام على جذع الشجرة و قد نمت البارحة قبل أن آتي

إليك بين القبور (ثم أشارت بيدها نحو المقبرة) أترى ذلك القبر في الأعلى ؟ لقد نمت بجواره . (ثم نكست رأسها وبدأ الحزن يضفي لمسات على وجهها) ، ثم قالت :

- لقد كان كل هذا في الماضي ، و لا تسألني عن الماضي فقد فقدتُ ذاكرتي و لا أجيد استخدامها إلا لتذكر عبير الورد في كانون ..

قاطعها إيليا و قال :

- وماذا عن الذكريات ! ؟ ؟

- ذكر لي جدي أن الذكريات مفتاح لما سنستقبله من أيام و ليست مفتاحاً للماضي كما يظنُّ الناس .

و للأسف ليس لي ذاكرة انتقائية حتى أتذكر الجميل في حياتي لأنني لم أر الجميل إلا في أيام معدودات .

- يا ندى لا شيء يجلب السعادة إلا التأمل ، حين نعي ونؤمن بأن النعمة منه وحده حتى لو ملكنا الأرض وما

عليها ، سيعلم الناس ذلك حين تنتهي الحياة و نبشّر بالحياة الأبدية حيث النعيم الذي لا ينفد و الهدوء الذي لا ينتهي و الصحة التي لا تختفي . ربما تسألين لماذا أعيش وحدي هنا ؟ (وضع إيليا كوب الشاي على الصخرة ثم وقف و أخذ بيدها و سار بها نحو تلك الطاحونة) : أنا أعيش هنا بعيداً عن كل ما يشغلني عن التأمل ، هنا أجد حياتي و سعادتي ، هنا بالقرب منه بعيداً عن كل بعيد عنه (يعني الله) ، أرى عظمته و قوته و كرمه و رحمته ، أتحدث إلى الأطيار و أكلم الأشجار و تندمج روحي مع نسيم الهواء و غيوم السماء .

- ما أجمل هذا الشعور ، لم يسبق لي أن شعرتُ به من قبل ، أشعر بأن أحزاني تتبدد هنا حين أستمع لكلماتك ، و لقد شعرت بفيض من الأحاسيس منذ أن سمعت كلماتك في الصباح ، تملّكني شعور بالرغبة في الحياة و كأني امرأة خرجت من مقبرة لتكمل حياتها بهدوء .

- بالطبع لا شيء أجمل من الأحاسيس المتدفقة ،، و الأيام تجعل أحاسيسنا أكثر تدفقاً من السابق يا ندى ، و قد قيل : " دائماً يختلف يومنا عن الأمس ". أما أنا فأبلغ الثلاثين من العمر و أمضيت هذه السنوات وحيداً لكني لم أشعر بالوحدة لأني تصالحت مع نفسي ، أعني بذلك أنني عرفت ماذا تريد و حفظت رغباتها فحفظتني ، آكل لأكسب بعض القوة فأتأمل ، إنني طويل التأمل كثير الخيال . (ثم التفت إليها وكأنه تذكر شيئا مهما) صحيح كم تبلغين من العمر يا ندى ! ؟ ؟

- مضى على خروجي من بطن أمي سبع و عشرون عاماً عشتها برفقة جدي ، كانت أجمل أيام حياتي ثم ماتت روحي و ها هي تعود إلى الحياة مرة أخرى حين استمعتْ إلى كلماتك هذا الصباح .

- إنكِ تشبهين تلك الفتاة ، حقاً إنها القصة ذاتها . .

- أيَّ فتاة تقصد ؟

- تلك الفتاة التي نمتِ على قبرها ، لقد ماتت مرتين لكنها في المرة الثانية كانت أكثر حزناً من الحياة التي عاشتها أول مرة ، سأحكي لكِ قصتها لاحقاً هل يمكنكِ الآن أن تحكي لي قصتك ! ؟ ؟

- ليس لي قصة أحكيها سوى أنني فتاة فقدتْ أسرتها في حرب بين الحق و الباطل لكن الباطل انتصر تلك الليلة فقط ، ثم هربتُ نحو المجهول و مشيتُ حافية القدمين حتى هبّت تلك العاصفة على هذا الوادي و أغمي علي من الإرهاق و لم أفق حتى وجدتُ نفسي بين القبور و قد أغرقتني مياه الأمطار و نجوتُ بأعجوبة . هذه روايتي .

- وماذا ستفعلين الآن ! ؟ ؟

- لا أعلم ، أود البقاء معك إن كنت لا تمانع لكني أرى في عينيك أنك تحب العزلة .

- قبل أن أجيبك على طلبك ، أخبريني كيف ترين ذلك في عيني ! ؟ ؟

- لديك عيون تشبه لون العسل و هذا يعني أنك غالباً ما تكون إنساناً حساساً معتمداً على نفسك وتفضل العزلة (ثم نظرت نحو الوادي وجعلته خلفها وقالت) و يعني أيضا أنك لا تجيد لعبة الصراحة .

- أنا أؤمن بوجود الجن و العفاريت لكني لا أظن أنك جنية فهل كنتِ تراقبينني طوال الوقت ؟

- ليس من الضروري مراقبة أحدهم لمعرفة شخصيته هكذا علمني جدي ، و يكفي أني رأيت فيك حنانا ورحمة . (وبدأت تظهر شخصيتها القوية رويداً رويداً. .)

ضحك إيليا ونظر إلى السماء ساعة ثم قال لها :

- أترغبين بالبقاء معي أم تذهبين إلى بيتنا في أسفل الوادي ؟ ؟ !.

- وماذا أفعل في بيتكم هربت من الزحام إلى الطبيعة الواسعة التي يغيب الفن بحضورها ، هربتُ من فصاحة الجمل و موسيقى الغرام إلى صدق الطبيعة ، و أشعر بالرغبة في البقاء معك إن كان ذلك يسرّك ، أما إذا لم توافق فسأستمر برحلتي و لا أعلم ماذا سيحدث لي . . (ابتزاز عواطف . .)

- (ابتسم في وجهها ثم ذهب إلى الصخرة ووقف فوقها) وقال : أن تبقي معي يعني أن تري الحياة كما أراها و ربما انتهى بنا المطاف إلى الزواج .. (تعريض . .)

- (تتنهد ثم تسير نحوه وتضع يديها على كتفيه من الخلف وتسند رأسها على ظهره) : لا أعلم في النهاية أريد أن أبقى معك .

لقد وجدتُ معك إحساساً لم أشعر به إلا عندما كنت مع جدي ، أشعر بالأمان هنا أكثر كما كنت أشعر به بين أحضان جدي . (تعريض بالقبول . .)

ثم جلسا على الصخرة لا يكلّم أحدهما الآخر ، لقد استغرق ذلك فترة من الزمن حتى قطع إيليا هذا الصمت بكلمات :

- الرجل لا يحقق شيئاً و لا يرسم شيئاً و لا يستطيع أن يموت صالحاً دون زوجة ، عندما ماتت جدتي كنتُ صغيراً و كان جدي في الخامسة والأربعين من عمره أي لا يزال شاباً لكنه لم يتزوج و لم يفكر بالزواج حتى إنه لما مات كان يقول لي :" بدون زوجة لا يموت الإنسان صالحاً " .

كنتُ أفكر دائماً ماذا يعني بكلماته تلك لكني لم أفهم ذلك .

حين يموت الإنسان وقبل أن تذهب روحه بدقائق بماذا يفكر ! ؟ ؟

لقد سألوا تلك الفتاة في القرية بعد أن ماتت و عاشت بماذا كنتِ تفكرين قبل موتك ؟ فقالت : كنتُ أفكّر بأغلى شيء أملكه ، إنه الحب ! ؟ ؟

لقد أحبت ابن عمّها منذ أن كانت طفلة ، كانت تتمنى أن يكون لها ، و لما أتاها الموت تردد على لسانها اسمه لقد كان أول ما تذكرته لكن روحها عادت إليها و في النهاية لم يتزوجها ابن عمها وماتت و لم تتزوج .

ثم تنهّد إيليا و قال : الزواج ، نعم إنه الزواج .

ربما كان أفضل سن للزواج بالنسبة إلى الرجال ما كان في الثلاثين إذ تتم المعرفة و يسكن القلب و يتعلم العقل فلا يفسد حب و لا يُنكر ود . هل نتفق في ذلك ! ؟ ؟

- حتى لو كنتَ في الأربعين أو الخمسين لا يهم المرأة سوى أن تعيش بسعادة مع الرجل الذي تحب .

أتعلم يا إيليا رغم حزني و إحساسي البائس و الكآبة التي ترتسم على شفاهي لكنني أجد فيك رجلاً عظيماً ، يكفي أنك لم تمسّني بسوء منذ أن قدمت إليك .

صحيح أنني لم أولد في قريتكم و لم أعش فيها و أنك لا تعرف عني شيئا لكني مستعدة للحديث معك عن كل تفاصيل حياتي و بصدق تام .

- لا أعلم إن كان هذا صحيحا ، في صباح واحد نتلكم عن كل شيء حتى عن الزواج و الحياة ، لم يحدث هذا من قبل ، هل هذا صحيح برأيك ! ؟ ؟

- لم نعرف بعضنا من قبل لكن لدي إيمان بأن أرواحنا التقت من قبل ، و الأجساد لا تهتم بزمن إن كانت الأرواح قد التقت منذ عقود . و لنفرض أن هذا الأمر لم يحدث من قبل فلا ضير في تحقيقه لنسجّله في هذا التاريخ أول مرة .

لما سمع إيليا هذه الكلمات ازداد ارتياحه و هدوؤه ثم أخذت الدماء تزداد جرياناً في عروقه و كأن الحياة قد اختلفت عن السابق .

قال لها :

- ينبغي عليكِ أن تكوني مع والدتي هناك في أسفل الوادي ، تحتاجين إلى بعض الملابس و الحنان ، أمي حنونة جداً ستحبينها حتماً .

و أخذ بيدها و انطلق نحو الوادي إلى قريته ، كان الناس ينظرون إليه و إلى تلك الفتاة التي معه .

همس بعضهم : إنها ليست من هذه القرية . . !

و بدأ الناس بالهمس فيما بينهم لكن إيليا ظل صامتاً حتى وصل إلى منزل أبيه و أمه . كانت أمه تخيط بعض الثياب و كان والده مشغولاً بإصلاح طاولة مكسورة و الحزنُ يسود المكان ، و لما رأت الأم قدوم ابنها إليهم تهلل وجهها و

قامت من مكانها لترحب به ، و أما والده فلم يكن مهتما بقدوم ولده لكنها الأم حين تحن إلى صغيرها و الرحمةُ المنبعثة من فؤادها . و بعد الترحيب قبّل إيليا رأس أبيه و قال : أعلم أني مقصر جداً في زيارتكم لكني لا أحب هذه القرية و لطالما قلتُ لكم : لنعش في الجبل بالقرب من الطاحونة لكنكم لا تحبون العيش بعيداً عن هذه القرية فهز رأسه و قال : لا بأس يا بني ، هل أنت بخير! ؟ ؟

- نعم يا أبي ، هل تأذن لي بأن تعيش هذه الفتاة في منزلنا ، إنها فتاة يتيمة وجدتها عند الطاحونة و قد أضاعت طريقها و أغمي عليها لحظة وصول العاصفة إلينا ، أرجوك أن تقبل طلبي هذا .

رحّب والداه بها أشد الترحيب ..

بعد ساعة من هذا تحدث إيليا إلى والدته وأخبرها بأن هذه الفتاة يتيمة و رجاها أن تعتني بها جيداً ، ثم قال لها : يا أمي .. لقد فقدت هذه الفتاة جميع عائلتها منذ أيام أرجو

أن تشعر بأنك والدتها ، اعتني بها جيداً ، لقد تحدثت إلى الفتاة و لم أعرف كامل قصتها لكني أظن أنها قد أعجبتني حقا ، ربما يرفض الواقع هذا ؛ إذ في ليلة واحدة و صباح واحد تسكن فؤادي فتاة لكن الحب لا يعرف استئذانا و قد وقع هذا وانتهى و أرجو أن تجلسي معها فأنتن النساء تعرفن اختيار الزوجة الجيدة لأولادكن ، فإن كانت تناسبني فسأكون سعيداً جداً (ثم قبّل رأس والدته . .)

ولمّا كانت عائلته قد يئست من زواجه لم يكن بمقدورهم رفض هذه الفكرة لاسيّما أن إيليا شاب عنيد لكنهم يثقون في اختياره فهو لم يعد طفلاً صغيراً . هزت أمه رأسها ثم أخذت ندى إلى غرفة مجاورة وقالت لها :

- انتظريني هنا سأسخن لك بعض الماء و سأجلب لك بعض الثياب لابد أن تغتسلي فالطين في كل مكان من جسدك يا صغيرتي .

- اسمي ندى يا خالتي ، أعتذر منك و أرجو أن لا أسبب لكِ إزعاجاً و إن رأيتِ مني ما يثقل عليكم أخبريني ، كل ما أرجوه أن أعيش بهدوء بعد فقدان عائلتي (اهتزّت دمعة ندى متعلّقة برموشها ..) و قبل أن تكمل كلامها قاطعتها أم إيليا و قالت :

- يا صغيرتي . . لماذا تتكلمين هكذا و هل تظنين أني سأسأل ابنتي عن حياتها ، لقد أوصاني بكِ إيليا أكثر من مرة خلال ساعة واحدة . أتعلمين يا صغيرتي : إن هذا الطفل المدلل (تعني إيليا) ينزل إلينا كل أسبوع مرة واحدة فإذا كنتِ راغبة بالعيش معه فعليك أن تتحملي جنونه و عناده أيضا (احمرّ خداها خجلاً . .) ثم همست في أذنها (إنه يشبه والده ، هو الثاني عنيدٌ جداً) .. ثم ضحكت و قالت : سأذهب وأعود بعد قليل ، اجلسي هنا يا صغيرتي .

(جلست الأم مع ندى ساعات و هي تتحدث إليها فأعجبت بها كثيراً ، لقد كانت تجيد كل شيء بل انتهت ساعات المحادثة بالاحتضان كما تحتضن الأم ابنتها . .)

الفصل الثالث

بعد شهر من هذا . .

غرّد خطباء الأطيار على منابر الأنوار و الأزهار لقدوم الربيع ، و ابتهجت الرياحين و شقائق النعمان و كأن الربيع قد ولد من خاصرة الشتاء ، فُرشت الأرض بالديباج الأخضر و تبسّمت السماء في أبهى منظر ، و عطّر النسيم الثرى حين هبّ على الورى ليفضّ همسات الأزهار فيما بينها و يداعبَ أوراق الأشجار لينشر ضحكات الربيع و يحتفلَ بزواج إيليا و ندى .

لقد أعلنوا الزواج مع تفتّح أزهار الحقول فزغردت الأطيار وسط السماء و ازدحمت الأسماك تقاتل سيوف الماء ، كانت الأحداث سريعة و كأن شيئا غير طبيعي يحدث في هذا العالم ، تسابقت الثواني والساعات و مضت الشمس تسعى بين الشروق والغروب ، ما إن تودّع الغرب حتى

يشتاق إليها فتزوره من جديد لترى الغيرة في وجه الشرق حين تعانق الغروب .

و بدت ندى في أجمل حلّة كأنها تنافس الشمس في الظهور لتسكن إليها الأرواح ، و في ضياء وجهها أثمرت أشجار التفاح ثم زُيّنت بحباتٌ من رمان الخجل فذابت حياءً على وجنتيها . لقد أخفى العناء زينتها وأرهق أنوثتها و أخفى الليل سواد عيونها ليظهرها الربيع كالزهرة التي تحطّم الثلج لتحيا من جديد .

انتهت مراسم الزواج لينقلها ايليا إلى بيتهما الجديد بالقرب من الطاحونة حيث كان يعيش جده ، لقد كان مصرّاً على البقاء هناك لتعيش معه ندى التي أحبت ذلك المكان ، لقد كانت تقول له دائماً : نبتعد عن الناس و نرى في الطبيعة روحاً تحتضن أرواحنا و نرى فيها كرماً ينسينا آلام الحياة .

أخذ إيليا بعض الأغراض و سار مع زوجته نحو الجبل ، و كان بين القرية والطاحونة سياج من الأشجار تعانق بعضها فإذا أراد أحدهم الوصول إلى القرية من الجبل أو بالعكس لابد أنْ يمرَّ حتما بهذه الغابة ، وما أجملها من غابة ! يكفيها النسيم البارد لتفرض روعتها و رائحته التي لم يقدر عليها صانع العطر في أكثر ساعاته مزجاً و خبرة ، لقد مزجتها الطبيعة من رائحة الأزهار و الثمر و الخشب الرطب و الأرض المبلولة ، تبعث فيمن يمر عبرها روحاً هادئة و طمأنينة لا توصف و استرخاءً لا ينسى .

أمسك إيليا يدي زوجته و أخذ يغني لها بعض الأشعار و ينظر إليها فتبتسم و يبتسم هو الآخر. لا ينبغي لنا أن نجتهد في تفسير رسائل مشفّرة بين العشاق ، فالنظرات و احمرار الخدود كفيلان بفضحهم ، و النسيم البارد مهما أخفى ارتعاش القلوب لابد أن تكشفها سخونة الأنفاس .

توقفا عند الشجرة و هما ينظران إلى الطاحونة ، تقدم إيليا نحو الصخرة و بدأ يردد كلماته المعتادة و ندى ترددها أيضا ثم دخلا منزلهما . كان البيتُ متواضعاً جداً ، فهو لا يحوي أثاثاً أو غيره : بعض الصناديق لوضع الثياب و بعض الأواني الخزفية و الفخارية .

جمع إيليا أنفاسه و بدأ يهيئ مكاناً لتجلس عليه ندى ، فتح النافذة فهبّت نسائم باردة أنعشت جدران المنزل الرطبة ، لقد كان نسيماً مملوءاً برائحة الغابة المجاورة ، أما ندى فقد كانت تنظر إليه و تبتسم بهدوء شديد و همست له :

- أتعلم ما أجمل الحياة البسيطة البعيدة عن التكلف ، كنتُ أتشوق لهذا دائماً و لذلك لم أعشق الجلوس في بيت أبي مثلما عشقته في بيت جدي المتواضع . ما أجمل الحياة في وسط الطبيعة و ما أجمل العيش فيها معك .

- كانت مجرد حياة و الآن أصبحت جميلة ، لقد وجدتُ أخيراً من يكون قريباً مني ، أحتضنه إذا غاب الهدوء و أشمُّ رائحته إذا اختنقتُ بأنفاس الحياة (مدّ يده ووضعها على ظهرها ثم قرّبها إلى صدره ثم سكنا)

التغيرات في الحياة تأتي فجأة ، نادراً ما تأتي على مهل ، تقتحم أسوار حياتنا و تكسر أبواب الروتين الممل ، و كلما كانت قراراتنا مفاجئة و قوية وجدنا التغيرات أكثر قوة ، تلك القرارات التي تغيرنا للأفضل دائماً .

قد نظن أننا نعيش أفضل عندما نبقى على حالنا لكننا مخطئون في الحكم لأننا لم نأخذه عن تجربة ، فالإنسان الذي يرغب في التغيير ثم يتغير لا يمكن أن يعود إلى الروتين الممل و الحال الأقل ضبطاً للنفس ؛ لأنه ذاق طعم الحياة بالتغيير و هذا ما حدث لـ إيليا حين ظن أن الحياة بالابتعاد و عدم الرغبة في الزواج هي أفضل من الزواج و الاقتراب . قطع ذلك الصمت سؤالٌ من إيليا :

هل أنتِ سعيدة يا ندى ! ؟ ؟ أعني أنت ترين بيتي الصغير و بُعدي عن الناس و اعتزالهم و أني لا أزورهم كثيراً و أن طعامي و فراشي و طاولتي على هذه الهيئة المتواضعة ، هل ستعيشين سعيدة حقاً ! ؟ ؟

- إن كنتَ تحبني و يأوي إليك قلبي ، إن كنت تعشقني ويشغلني اهتمامك بي لستُ أبالي أين تطرح روحي ، ثم إني عشتُ أياماً سوداء و مَنْ نام بين القبور فرح بالنوم على الأرض و القش .

وضع إيليا يديه على كتفيها و نظر إلى عينيها وابتسم ، لقد كانت أقصر منه قامة متناسقةَ الجسد شعرُها طويل و عيونها سوداء و خدّها كأنه قطعة من زهر الرمّان ، في عيونها نعس و في شفاهها هدوء البسمة و طمأنينة الأرواح . أخذ يضمّها بقوة و بدورها غرست رأسها في صدره واضعة كلتا يديها على كتفيه ، كانت أشبه بميسم الزهرة تحتضنها بتلاتها .

لقد شعرت للمرة الأولى بأن روحها المتجمدة قد حصلت على الدفء و أن دموعها المحبوسة قد أعلنت التمرد على عينيها و أن فؤادها المرهق قد ذاق طعم الاسترخاء بين ذراعيه و أخذت تبكي حتى ابتلّ صدره بدموعها و هو يقبّل رأسها و يمسح بيده على شعرها . و مضت تلك الليلة بخاتمة الاحتضان ، لقد كانت طفلة بكّاءة تظهر أنوثتها و قوّتها في آن واحد .

استيقظت ندى في الصباح و لم تجد زوجها بجوارها ، غطى إيليا زوجته ثم خرج قبل طلوع الفجر نحو الشجرة الكبيرة ، لقد اعتاد التأمل في هذا الوقت ليستمد طاقته و قدرته على التفكير سائر يومه ، أبعدت ندى الغطاء ثم راحت تنظر من خلال النافذة لترى زوجها واقفا على الصخرة الكبيرة و ينظر بهدوء إلى القرية في بطن الوادي ، لقد كان الشرود في أعماقه ، اقتربت منه ثم أمسكت به من الخلف واضعة خدها على ظهره لتهمس بكلمات وبصوتها العذب :

- أتتركني وحيدة ! ؟ ؟

حرّك إيليا رأسه ثم جسده و نظر إليها إيليا و احتضنها بيده اليسرى ثم قرّبها نحو فؤاده و بدأ يدور بها ببطء و هو يشير بأصبعه إلى كل مكان حوله قائلاً:

- لا تقلقي ليس هناك أحد في هذا المكان سوانا و ليس لي أحد غيرك ، أتظنين أن باستطاعتي العيش دونك بعد نومكِ على صدري ليلة كاملة .؟

ثم نقر بأصبعه على جبينها و قال :

- هل تعين هذا ! ؟ ؟

ظلت ندى مبتسمة لدقيقة و النعاس يأكل عينيها و هي ترتجف لنسائم الفجر ثم قالت :

- نعم أعي ذلك (قالتها و هي ترتجف) ..

وأخذا يرددان تلك الكلمات معاً:

أيها الصباح العاشق للحب و السعادة

يا ناشراً عبير أنفاسك الباردة

ارتجفت قطرات الندى بشتائك

و غنّت الأطيار أجمل الأشعار بروعة أنفاسك

و تحت صخورك اختبأت الأمنيات

اليوم لنا فيك رغبة وطموح

اليوم بهدوئك نداوي الجروح ..

ثم احتضنها بيده الأخرى و جلسا على تلك الصخرة و سادت حالة من الصمت الطويل حتى تحطم هذا الحاجز بسؤال من ندى :

- حبيبي ، من الوهلة الأولى التي تحدثتُ فيها إليك وجدتُ في أعماقك أسراراً كثيرة ، أشعر بأن لديك ما تخفيه في هذه الحياة ، لا يمكن أن تكون مجرد رجل عادي هجر أهل قريته و سكن في الجبل وحده و لا يخاف على نفسه من وحوشها ، هل أستطيع معرفة تلك الأسرار ؟

ابتسم إيليا :

- سأحكي لك حكايتي ، هناك كثير من الحكايا المخبوءة خلف هذه العظام (و هو يضرب صدره) . منذ سنوات كنتُ أعيش مع جدي في هذه الطاحونة ، لقد كان صاحب قسوة شديدة ، تعامل معي على هذا النحو و لم يسمح لي برؤية عائلتي كثيراً ففي كل أسبوع أراهم ساعة واحدة و أعود إلى الطاحونة ، لكني في الحقيقة تعلّمتُ منه الكثير و لم يكن فيه عيب إلا قسوة قلبه . كنتُ أتساءل كثيراً لماذا يعاملني بهذه الطريقة و أنا ابن ولده ؟ و لكني صبرتُ و لم أقل في يوم (أف) .

كان يتردد في كل مساء إلى الجبل يقضي ساعات ثم يعود ، و كنتُ أشعر بالضيق كثيراً و سألته مراراً إلى أين تذهب ؟ لكنه لم يبح لي بسره بل وبّخني كثيراً و مضت السنوات و كبرتُ و لم أكتشف ذلك السر حتى قرّرت أن أعرفه و لو كلّفني ذلك حياتي . و في إحدى الليالي تبعتُه دون أن يعلم حيث مضى في طريقه بين الصخور يقطع الأرض قطعاً ، و كنت أتبعه في الظلام و لا أعلم أين سيذهب ، كان يحمل في يده سراجاً و كنتُ أتعثر كثيراً خلفه لكني أحاول جاهداً أن أكتم آلامي و صوتي ، ثمَّ دخل في مغارة فتبعتُه و وضع السراج على صخرة كبيرة و كنتُ مختبئاً وراء صخرة أنظر إليه فإذا به يحمل أكياسا من الذهب بين يديه ، لم أصدق ما رأيت !! فجدي فقيرٌ جداً و عائلتنا ليست ثرية ، و على الرغم من وجود كل هذا الذهب لم ينفق جدي منه شيئاً بل ظل مخزونا لديه في عمق الجبل ، تعجّبت كثيراً من فعله هذا ، كمياتٌ كبيرةٌ من الذهب لم ينفق منها شيئاً و يجبرني على أكل الخبز اليابس كلَّ يوم ؟!! حزنتُ كثيراً لما

فعله جدي و بعد أن انتهى من رؤية أكياس الذهب جلس يصلي ساعة و يرفع يديه بالدعاء لكني لم أسمع ما يقول ، و لما انتهى و أراد العودة إلى الطاحونة هربتُ مسرعاً حتى أصل قبله ، لقد جرحتُ كثيراً من كثرة سقوطي على الأرض وعلى الصخور ، وحين وصلتُ تظاهرتُ بالنوم . و مضت أيام على هذه القصة ، كنتُ على يقينٍ أن المال لا يعني له شيئاً لمَا رأيت من عبادته و سكينته لكنه حين لم يخبرني به أو يعطني منه شيئاً فكرتُ في ذلك فوجدتُ أنه ربما لم يشأ أن تغرّني الحياة فأفسد فيها .

- وماذا حدث بعد ذلك ! ؟ ؟

- توفّي جدي بعدها بمرض لم نعرفه ، و على الرغم من قسوته الشديدة معي إلا أني شعرتُ بالحزن والأسى لفقده ، و مضت أيامٌ على وفاته ثمَّ تذكرت ذلك الذهب فذهبت إلى الجبل أسعى لأبحث عن المغارة من جديد و عزمتُ على جمع ذلك الذهب لأعود إلى قريتي لكني عندما

وصلت إلى المغارة لم أجد أي ذهب ، لقد فتّشتُ عنه طويلاً و لم أجد أي أثر يدل على وجوده ، و منذ سنوات و أنا أبحث عنه في كل ناحية من الجبل لكن دون جدوى . و في كل مرة أذهب بها إلى الجبل كنتُ أتذكر صلاة جدي فأصلي ساعة في نفس المكان ثم أعود إلى الطاحونة ، و قد عرف الناسُ أمر خروجي إلى الجبل كل مساء لأني كنتُ أحمل السراج بيدي و أخرج مساءً فيرون الضوء فهم في أسفل الوادي و أنا في وسط الجبل ، كانوا يتعجّبون كثيراً من رؤية النور في كل ليلة و لا يعرفون سببه حتى رآني أحد رجال القرية و أنا أعدو نحو الجبل حاملاً بيدي ذلك السراج ، و منذ ذلك اليوم و هم يتحدثون عني بقصص و روايات لا أجدها إلا رواياتٍ من الأساطير ، فتارةً يقولون أنني ساحر و تارة يقولون أنني أحد العبّاد الذين يهربون إلى الجبال و تارة أخرى يقولون أنني أكلّم الوحوش في كل ليلة و لم يعلموا أني كنتُ أبحث عن الذهب و أصلي فقط في ذات المكان الذي اعتاد جدي الصلاة فيه .

- لماذا لم تذهب في النهار للبحث عنه ؟

- كنتُ أخشى على والدي إذا أرسلا إلي أحداً و لم يجدني في الطاحونة ، أخاف ان يصابا بشيء لم أحسب حسابه .

- عجيبٌ لكن قصة الذهب أكثر غرابة ، مهما ارتدى الإنسان ثوب الزهد عليه أن يعطي الناس الذهب إذا لم يشأ أن يتصرّف به لنفسه . ألم تبحث عنه في الطاحونة ! ؟ ؟

- بحثت كثيراً لكني لم أجده في أي مكان ، ربما خبأه في مكان ما بعيداً عن الطاحونة و عن القرية أيضا أو ربما وهبه لأحد الناس . لا أعلم ..

- ما هو الذهب بالنسبة إليك ! ؟ ؟

- إذا أردتِ الحقيقة فهو لا يعنيني الآن ، ربما كنتُ أطمح إلى الكثير من الأشياء و الرغبات لكني بعد أن ثابرت على الصلاة و الدعاء لم أعد أهتم بهذه الحياة أبداً ، لقد

بحثت عنه لأساعد هؤلاء الناس ، ألم تريهم ! ؟ ؟ إن أحوالهم تزداد سوءا يوماً بعد يوم و لا أعلم لماذا يزداد الناس فقراً على الرغم من تلك المحاصيل التي يحصدونها والفاكهة التي يجمعونها في كل عام .

ضحكت ندى و قالت : ألا تعلم لماذا يا عزيزي .. ! ؟ ؟

إنهم التجار يفعلون ما يشاؤون ويستخدمون الناس كما يريدون و يستغلونهم بذكاء ، أتعلم يا عزيزي : إن التاجر قبل أن يكون تاجراً كبيراً يجرّد نفسه من العواطف غالباً حتى ينبت بطنه ويزداد شحمه ، و إلا فلماذا يرفعون الأسعار و يتنافسون في الليل والنهار ! ؟ ؟

إن القليل منهم من يجد لذة في مساعدة الناس و العيش بسلام معهم ، قامت هذه الحروب و نزل البلاء فقط لأن الجشع أخذ مكانه بينهم . كل شيء في هذه الطبيعة يبتسم للسلام غير أن البشر و الجن لا يستمتعون إلا بالإفساد فيها ، يجدون لذة في الخراب و الظلم و الاستغلال و

يتنافسون في سلب العواطف و دفنها في بئر مغلق . حدثت قصة في قريتنا منذ زمن طويل و تحكي القصة أن تاجراً من تجار القرية كان رجلاً فقيراً قبل أن يصل إلى ذلك الغنى لكنه كان يبخل على نفسه و عائلته و يجمع القطع الذهبية الواحدة تلو الأخرى حتى صار لديه بعض المال فبدأ بالتجارة و استغل فرصة احتياج الكثير من الناس إلى بعض المواد في الشتاء مما لا يتوفر إلا في الصيف فاحتكر كما يفعل البقية و صار يبيع الناس بأسعار مضاعفة و استغلهم استغلالاً فاحشاً حتى صار من أثرياء القرية ، و الناس كما قال جدي : (يكفيهم في العالم أي شيء إلا الإنسان الطماع فإنه لا يكفيه من العالم شيء) . واستمر التاجر في جشعه ، و الطبيعةُ لا يمكنها الوقوف في وجه الجشع حتى أتى ذات يوم إلى بيته ليجد أحد أولاده في حالة يرثى لها ، كان مريضاً جداً ، و بسبب غروره لم يعتنِ به و مرَّتِ الأيام و ازدادت حالته سوءاً حتى أدرك أنه أخطأ في حقه و قصّر و تأخر في جلب الدواء له و بدأ صوت الضمير

يصرخ في أذنه حتى هام على وجهه يبحث بين الأطباء عن دواء لولده ، و من طبيب إلى آخر حتى أنفق نصف ثروته لكن ولده لم ينتظر حتى خرجت روحه دون أن تستأذنهم و مات قبل أن يودعهم .

- وماذا حدث لهذا التاجر بعد أن مات ولده! ؟ ؟

- أخبرتني أمي أنه حينما رأى ولده الميت ذهب إلى صندوقه المليء بالذهب وبدأ يرمي به أمام باب بيته و بدأ الأطفال بجمع الذهب و هو يبكي و يقول : خذوا مالي و أعيدوا ولدي . لكن هيهات أن يعود فقد خسر الاثنين معا مالَه و ولدَه.

تنهد إيليا ثم نظر إلى السماء و قال : ربما كان جدي على حق حين لم ينفق هذا المال لكنه أخطأ حين لم يساعد الفقراء .

" إن أفضل أعمال الإنسان أن يقدم السعادة لأكبر قدر من الناس سواءً بماله أو بكلامه أو بأفعاله ، و قد هلكت الأمم بالحسد والأنانية و الجشع .. "

انتهت تلك المحادثة عند هذه النقطة ..

بعد شهرين من زواجهما ..

" الحب دمعةٌ و ابتسامة ، دمعةٌ من سماء التفكير و ابتسامة من حقل النفس " لامارتين

لم يكن لـ إيليا أي عمل قبل زواجه ، لقد كان يساعد الناس فقط لكنه لا ينزل إليهم مطلقاً ، كان عمله بسيطاً جداً ، كأن يطحن بعض الحبوب لبعض الفقراء ممن ليس لديهم مال كافٍ لطحنه في أماكن أخرى ، إذ إن إيليا يكتفي بقليل من الطحين لكل كيسٍ من القمح ، كانت حياته مختصرة في كلمات " آكل لأستطيع ممارسة العيش" .

وبعد زواجه اضطر إيليا إلى العمل في أرض قريبة من الطاحونة يزرع فيها بعض الخضروات ، فحياته الآن تغيّرت و لا يستطيع أن يجبر زوجته على أكل الخبز اليابس فقط . و ليت الرجال يفهمون هذا عندما يتزوجون ، يفهمون بأن ما يستطيعون تحمّله لا يمكن فرضه على زوجاتهم ؛ لأن النساء أضعف من الرجال و لأن المرأة قد تربّت على شيء لم يتربَّ هو عليه ، فكما كانت عزيزة في بيت أبيها لابد أن يظهر عزها في بيت زوجها عملاً بالرفق .

بدأ إيليا بحراثة الأرض و ها هو الآن يضرب الأرض بفأسه و كلما ضربها بضع ضربات توقف قليلاً و ساح بفكره بعيداً ، ما أعذب صوت الفأس حين يشق الأرض و يكسر الصخور ! إنه يجلب لنا الكثير من الأفكار لكن الفكرة الأولى التي يُسمع لها أعظم صدى هي فكرة الطموح التي تزداد توهجاً كلما شعر الإنسان بإنجازه ، و أعظم إنجاز لكل الناس هو شق الأرض لتحيا من جديد .

لقد كان يفكر طويلاً في هذه الحياة يستمع إلى همس الطبيعة حين يرسل الجبل رسائله مع النسيم ليهمس لأوراق الأشجار و مياسم الأزهار و الحشائش على ضفاف الأنهار ، ليحكي لها قصة الصلابة في صخوره و يستفسر عن عبث أوراق الغابات ليطمئن زهوره . أما إيليا فقد كانت قصة الذهب و جده تشغله كثيراً ، يهمس لنفسه : أين وضع الذهب ! ؟ ؟ (يعني جدّه) كنت أنتظره كل مساء و لم أره في يوم يحمل ذهباً ، إذن فالذهب لازال في الجبل ، لماذا لم يهبه لي إن كان لا يريده حقاً ؟ . لا أعلم السبب لكن الذهب لم يخرج من هذه البقعة إما أن يكون في الجبل أو هنا في الطاحونة .

وظل يضرب بفأسه الأرضَ و الغيومُ تغطي السماء تارة و تكشف شعاع الشمس تارة أخرى ، و لما خرج ضوء الشمس ليخبره بأن الظهر قد اقترب و قد غرق حاجباه بالعرق أحسَّ بالعطش الشديد فأخذ آنية الماء الفخارية و شرب منها ثم غسل وجهه و رأسه و نشفه بقطعة من

القماش ملفوفة على خصره و اقترب من الشجرة و وضع رأسه على بعض العشب و وضع قبعته على وجهه و أخذ غفوة صغيرة فيما ظلت الغيوم تسير ببطء في السماء و الأشجار تهز أوراقها لتعزف ألحاناً تغنيها الرياح .

الفصل الرابع

متى نحقق الرواية لهذه الأرواح و متى نرتاح ...؟

النوم يذكرنا بالموت و الموت يذكرنا بطموح لم ينتهِ بعد و بقصة حب تفتر أحيانا و تستعيد عافيتها بالفتور ، و السعي خلف تلك الرواية يزيدها إثارة حتى لو انتهى بنا المطاف لعودة أجسادنا إلى الأرض في وسط الصحراء أو ضياع كل ذرة لحم من أجسادنا بين مناقير الطيور الجارحة على قمة الجبل ، في النهاية تبقى رواية لا نهتم بخاتمتها بقدر التلذذ بروعة أحداثها و بقائها في النفوس .

قلتُ لهم دائماً ابحثوا عن أول كلمة في تلك الرواية فهي خيط يوصلكم إلى النهاية ، طريقٌ يحمل الكثير من الإجابات على الكثير من الأسئلة و المعضلات التي ترغبون في معرفتها ، فالله غني عن عباده لكنه أخبرهم كثيراً أن يعيدوا التفكير بما حولهم من المخلوقات ، و أمرهم أن يفكروا حتى بأنفسهم وأن يعقلوا بقلوبهم ، و لماذا يأمرهم بهذا لولا

وجود الخير لهم ، لكننا عبثاً نسعى خلف كل شيء يضعف رغبتنا في الحصول على تلك الرواية .

صوت دبور أيقظ إيليا ، لقد شعر بأنه قد أمضى وقتاً طويلاً في النوم ، رفع قبعته التي كانت تغطي وجهه ليستكشف الوقت فرأى ندى نائمة بالقرب منه بل كانت نائمة على بطنه و قد غطّت في نوم عميق و بجانبها إبريق شاي مع خبز و سمن . فحين قدمت إليه بالطعام كان مستلقياً على ظهره نائماً و لم تشأ أن تفسد عليه تلك القيلولة بل تركته يستريح حتى يستيقظ وحده لكنها لم تنتظر طويلاً حتى أصابها النعاس هي الأخرى فوضعت رأسها على بطنه و ألقت بجسدها على العشب و نامت ، و لما أفاق إيليا بسبب صوت الدبور و وجدها نائمة انتظرها هو الآخر و لم يتحرّك و حاول أن يحرّك يديه ليبعد الدبّور لكن صوت الدبور أيقظها هي الأخرى بعد لحظات من استيقاظه ، نظر إليها بلهفة ثم ضحك فقالت له و قد بدت غاضبة :

- ما يضحكك ! ؟ ؟

- لماذا تغارين مني ! ؟ ؟ ألم تكوني نائمة في سريرك ، أيعقل أن تتركيه و تنامي هنا على معدتي الخاوية أيضا ! ؟ ؟ (كان تعريضاً بالجوع)

- لم أكن نائمة بل كنت أستمع إلى صوت معدتك فقط لأرى هل أنت جائع .؟

- وماذا ترين ! ؟ ؟

- أظن أن علي تسخين الشاي من جديد .

ضحك إيليا ثم قال لها :

- أتعلمين قبل هذا كنتُ في مثل هذا الوقت أنام تحت الشجرة و لم أعتد أن أستيقظ لأجد أحداً بالقرب مني ،و لم أفكر يوماً في الزواج و لا في زراعة هذا الحقل رغم أني جهزته لشيء آخر ، كنتُ في الحقيقة أود أن أسيّجه و أضع فيه بعض الأغنام .

- ولماذا الأغنام . ! !

- يذكر لنا كبار السن أن مهنة الصالحين في زمن مضى كانت رعيَ الأغنام ، حتى الرهبان الذين ساحوا في الأرض كانوا يعشقون الأغنام ،إن في ذلك لسراً عميقاً ربما لأن الطبيعة و سكونها يجلبان السعادة الحقيقية إلى القلوب حيث يتأمل الراعي كل شيء و يحدد طريق روايته الحقيقية أيضاً ؛ لأنه يتأمل السماء و يعد غيومها و يتأمل الأشجار و الأحجار و يعرف الجهات و يميز المكان الجيد من السيء ، و ربما يعثر في رحلاته عبر تلك المراعي على الكثير من الأسرار و الخفايا لا يشغله أحد مبتعداً عن كل ضجيج . لكني الآن و بعد أنت تزوجتكِ يا عزيزتي قلتُ في نفسي سأزرع هذا المكان و لا سيما بعد اكتشافي أن هذه الأرض جيدة للزراعة ، يجب أن تأكلي جيداً ربما نرزق بطفلٍ يوماً ما .

ابتسمت ندى ابتسامة خفيفة و طرحت بعض أنفاسها ثم قالت : الحمد لله .

وبدأت تسكب الشاي و لم تنتبه إليه حين كان يرمقها ويتأملها بلهفة العاشق حتى خجلت و تلألأت عيناها و أصابها الإحراج حين رأت منه ذلك ، و ازداد لمعان خدها المحمر فقالت له :

- لماذا تنظر إلي هكذا ، و لماذا تبتسم ! ؟ ؟

- أترفضين هدوئي أمام بريق مبسمك و لمعان عيونك و احمرار خدودك ، أشعر بالارتياح كلما نظرت إليكِ ، تذوب الألوان و تنجلي ليبقى لونكِ و تنحسر الرؤية عند جمال وجهكِ و يغيب النسيم عند عبقِ أنفاسكِ ، هذا كل شيء . ثم رفع يديه كما يفعل الأطفال حين يجدون الفرح و قال :

- لقد أصبحتُ شاعراً بلحظة ، و كيف يكتب الشعراء تلك القصائد لولا تلك العيون التي تشبه عيونك .

لطالما احتاجت المرأة إلى كلمات الحب التي تطمئن قلبها الملهوف ، إن تلك الحروب تزداد ضراوة و تهتك أفئدة النساء حين لا تجد إلا الإهمال أو الاهتمام بسواها ، قلوب النساء تعشق مرة واحدة ولا تهبها لغير حبيبها إلا إذا كانت لعوباً ، و لا تهدأ إن حاول أحدٌ سلب محبوبها ، إن ذلك الطين يحمل ألواناً مختلفة من صفات الخير والشر للبشر ، غير أن بعضهم يحارب صفات الشر فينتصر و بعضهم يحارب صفات الخير فينتصر ، و الغيرةُ وحب التملك صفتان قلّما تستطيع امرأة أن تنتصر عليهما و لو انتصرت لما كانت امرأة ، فأجمل ما في المرأة أن تحظى بنتيجة التعادل في معركتها مع الغيرة و حب التملك حتى لا تفقد أنوثتها و لا تفقد محبوبها .

" أيتها النساء حتى لو وجدتن الانتصار على الغيرة اتركن ثغرة ليعود الاستقرار و لا تسمحن للغيرة أيضا أن تتغلب عليكن أبداً .. "

كان إيليا يستمد طاقة الحب من صوت ندى فقد تجمّعت الأنوثة في صوتها ، إن صوت المرأة هو أعذب الأصوات ، لو اجتمع فنانو الصوت و أهل الأشعار لن يجدوا صوتاً أكثر تأثيراً من صوت المرأة .

الأشياء الجميلة قد تحرّك شهواتنا وغرائزنا لكن الصوت العذب يحرّك أرواحنا ، و صوتُها أكثر نعومة من الهواء و أجمل من عزفِ دقّات قلوب العاشقين .

هكذا كان يعبّر إيليا عن إعجابه ، لقد كانت أجمل لوحات الحياة في نظره لا يمل من التأمل فيها .

هكذا الحياة ..

لا تمل الحياة من السير بسرعة و لا تصاب بالإرهاق إنها تقدم الكثير من الموتى و من الساعات والدقائق الهالكة المنتهية ، إنها تعشق الموت و تقدّم أبناءها يوماً بعد يوم بل لحظة بعد لحظة ، و الحكايا لا تنتهي و الروايات لا تتوقف ، إذ إن لكل مخلوق رواية طويلة يحتاج المستمع إلى وقت طويل بعدد ساعات حياة الراوي ليعرف نهاية الرواية لكن السعيد من يأخذ من كل شيء أحسنه .

لقد مرّ عام على زواجهما ، و خلال هذا العام مرّت أحداث كثيرة كالغريب إذا عاد إلى وطنه يرى الكثير و يسمع مالم يتوقعه . لقد مات والدا إيليا خلال هذا العام ، و حزن إيليا كثيراً لأنه لم يتبقَ له من العائلة أحد ، و لا يعلم إن كان لديه أقرباء في ناحية أخرى أم لا لكن ندى كانت إلى جانبه رغم أن الحزن أكل فؤادها هي الأخرى لِمَا رأت من ارتباط روحها بتلك العائلة و لأنها تذكرت عائلتها منذ زمن بعيد .

مضت الأيام كما تهاجر الطيور إذا غابت الشمس ، و هبّتْ رياح باردة تجر خلفها سُحب الشتاء ، لم يبقَ سواها زوجِته ندى إلى جانبه ، و مضت الأيام حتى انتهى هذا العام . و بدأت حكاية جديدة في ظل الحياة .

اعتاد إيليا أن يستيقظ مبكراً و يبدأ صباحه بالجلوس على الصخرة ، و اعتادت ندى أيضا أن تصنع الشاي و تضع السمن على الخبز مع القليل من الخضروات و يفطران قبل شروق الشمس تحت ظل الشجرة الكبيرة .

لم تكن ندى معتادة في أول قدومها على تلك العادة لكنها كانت تستيقظ مع إيليا كل فجر و ينتظران شروق الشمس و يفطران تحت تلك الشجرة معاً .

وخلال ذلك العام تغيّرت الكثير من الأشياء ، و أكثر هذه الأشياء روعة هو أن ندى كانت تعلّم إيليا القراءة و الكتابة في كل يوم و تقرأُ له بعض الحكايات مما تحفظه كل ليلة ، لقد كان سعيداً جداً بهذا فلم يسبق له أن وجد من

يعلّمه القراءة جيداً ، كان يجيد كتابة الحروف لكن بشكل سيء ، أما الآن و بعد جهودها فقد أصبح يكتب و يقرأ و يستطيع نسج الحروف كيفما أراد .

لقد كانت تقول له دائماً :

لابد أن تتعلم القراءة و الكتابة جيداً فهناك الكثير مما يجب عليك فعله . كانت ندى تخفي في نفسها أمراً لم يعلمه إيليا و لم يشعر به . كذلك كانت تبذل كل ما لديها من طاقة من أجل أن ترى زوجها أكثر قوة و أفضل حالاً من غيره و أرادت منه أن يكون عظيماً و هكذا تكون النساء العظيمات .

فما هو الأمر الذي كانت ندى تخفيه ؟

ولماذا أخفته عن إيليا ؟

لقد حدث ذلك قبل ثلاثة أشهر عندما كانت ندى تردد كلمات إيليا :

أيها الصباح العاشق للحب والسعادة

يا ناشراً عبير أنفاسك الباردة

ارتجفت قطرات الندى بشتائك

وغنّت الأطيار أجمل الأشعار بروعة أنفاسك

وتحت صخورك اختبأت الأمنيات

اليوم لنا فيك رغبة وطموح

اليوم بهدوئك نداوي الجروح ..

لقد تأملتها طويلاً و كانت تقول في نفسها :

- **لابد أن لهذه الكلمات علاقةً بالذهب ، و بعد تفكير طويل عرفت ندى مكان الذهب من خلال تلك الكلمات و أيقنت بوجوده لكنها لم تخبر إيليا بذلك لأسباب عديدة كان منها أن إيليا لم تكن لديه خبرة كافية في الحياة ، و كانت ندى ترسم**

الحياة بعناية لهذا أخفت سر الذهب حتى تتأكد أن إيليا تعلم الكثير و أن الذهب لا يعني له شيئاً حقيقاً في نفسه كما قال و ليس ذلك مجرد كلمات ينطق بها فقط.

وبعد أن عرفت ندى مكان الذهب أخذت تعلّم إيليا بجدّ ، إن هذه المرأة تخفي في داخلها الكثير مما لا يعلمه إيليا حتى الآن لكنها امرأة عظيمة حقاً فماذا حدث بعد ذلك ؟

نمر بالقلق و يمرّ بنا كثيراً و لا نستطيع دفعه إلا بالقناعة ، و نعتقد يقيناً أن اليوم لنا و لا ينبغي التفكير بما بعده ، لقد كان إيليا مشغول البال . جلست ندى بالقرب منه و قالت له :

- ما يشغل بالك ! ؟ ؟

- كنت أفكر في الذهب الذي خبأه جدي و كلما فكرت في ذلك أزداد ضيقاً وإرهاقاً ، فهو لم ينفق منه شيئاً

و لم يهبه لأولاده أو حتى للفقراء ، فلماذا فعل كل هذا و في أي مكان يخفيه ! ؟ ؟ أفكر بكلماته التي طالما رددها أمامي كل صباح .

- وماذا تعني ، لماذا تشغل تفكيرك بكلماته تلك ! ؟ ؟ (كانت تظن أن إيليا قد اكتشف سر الذهب لهذا استفسرت عن ذلك)

- أعني أن من يستمع إلى جدي كل صباح و هو يردد تلك الكلمات يظن أنه أكثر سعادة من جميع رجال هذا الكون و أن الدنيا أصبحت لا شيء بالنسبة له و أنها ملكه و لم يعد له رغبة في أن يمتلك أكثر من ذلك ، لكنه لم ينفق على نفسه يوماً حتى ثيابُه ارتداها لسنوات و لم يفكّر في تغييرها . أتعلمين : إني أصنع مثله تماماً لقد أخذتُ الكثير من طبائعه ، أرتدي هذه الثياب الخشنة و آكل مما أجده ولا أفكر في الغنى أبداً .

سكتت ندى مدة من الزمن كانت تقول في نفسها (إن إيليا تعلم الكثير خلال هذا العام ، و ربما آن الأوان لكشف سر الذهب له ، لكني لن أقول له إني عرفتُ ذلك منذ زمن فالرجال يكرهون كثيراً أن تخبئ النساء سراً كان من المفترض أن يعرفوه لكن الضرورة دفعتني لإخفاء ذلك السر فسامحني يا إيليا) ثم قالت له :

- أتعلم ، ربما كانت كلماته تلك مفتاحاً لمكان الذهب .

- وكيف ستكون مفتاحا للذهب ! ؟ ؟ (بدأ إيليا يردد الكلمات مرة أخرى)

أيها الصباح العاشق للحب والسعادة

يا ناشرا عبير أنفاسك الباردة

ارتجفت قطرات الندى بشتائك

وغنّت الأطيار أجمل الأشعار بروعة أنفاسك

وتحت صخورك اختبأت الأمنيات

اليوم لنا فيك رغبة وطموح

اليوم بهدوئك نداوي الجروح ..

رددها كثيراً ثم قال : إنها لا توحي إلى شيء و ليس فيها أي رمز أو دلالة ..

لقد كان جدي يرددها بعد طلوع الفجر في كل يوم واقفاً على تلك الصخرة ، يرددها ثم يجلس قليلاً بجوار الشجرة ..

- بل هناك رمز في كلماته تلك و دلالة واضحة إن لم يخب ظني فهو يقول في كلماته (وتحت صخورك اختبأت الأمنيات) هل يعقل أن يخبئ الذهب بالقرب من الصخرة أو تحتها . ! ! ربما كانت الحكاية أن الأمنية هي الذهب لأن بعض الأمنيات تتحقق بالمال إذا كان موجوداً .

- لقد أصبتِ يا ندى ، لم يخطر على بالي ذلك مطلقاً ، هل يعقل أن يكون كلامك و تفسيرك صحيحاً ! ؟

بدأ إيليا بالبحث حول تلك الصخرة حتى وجد إشارة إلى تلك الأمنية ، لقد رُسم سهمٌ يشير إلى أسفل الصخرة و كان واضحاً جداً لكنه صغير.

أخذ إيليا يحفر و كلما حفر قليلاً وجد كيساً من الذهب حتى اجتمعت لديه عشرة أكياس لم يجد سواها في تلك الناحية ، ثم وجد في أحد الأكياس رقعة كُتبتْ فيها كلمات و كأنها وصية ، فأعطى الرسالة لزوجته و أشار إليها بالقراءة ، ثم جلس على الصخرة و هي بالقرب منه ثم بدأت القراءة له :

" إن كنت أنت إيليا فهنيئاً لك بالذهب يا بني ، أظن أنك تعرفني جيداً ، أنا رجل الطاحونة (جدك) . إذا كنت قد سألت نفسك يوماً عن سبب إخفاء الذهب فسأخبرك بالسبب ، لقد حاولتُ جاهداً أن أكون رجلاً صالحاً لأنني علمتُ أن الوجود في الدنيا غير دائم . و لقد فقدتُ رغبتي في الحياة بعد موتِ جدتك ، كنتُ أصلي كثيراً في الجبل

بعيداً عن الناس و ضجيجهم ، حاولتُ أن أجد السعادة في الخلوة ، ثم وجدتُ هذا الذهب في مغارة ، و كنتُ في كل ليلة أذهب إلى هذه المغارة لأصلي و أرى هل أتى صاحب الذهب ليأخذه أم لا ؟ لكني خلال تلك السنين الطويلة لم أجد أي إنسان يقترب من هذه المغارة فعرفتُ أنَّ الذهب لم يكن لأحد . لقد مضى عمري ولم يعد للذهب قيمة ، خفتُ كثيراً أن أعطيَك الذهب دون وجه حق فحفرتُ له مكاناً تحت الصخرة ثم دعوت الله أن يكون من نصيبك إن كنت صالحاً ومستحقاً له . لقد ذكروا لي قصة رجل صالح خبأ أمواله في مكان ما و قال : يا رب السماوات الذي لا ينام قد رأيتني و أنا أضع المال هنا و أنت العليم ، أسألك أن يكون هذا المال لأكثر أبنائي صلاحاً ، فمضت السنوات بعد موته و جاء الأحفاد وأحفادهم إلى أن حظي بالذهب أحد أحفاده ، لقد كان يتيماً فقيراً صالحاً فنال الذهب و المال كله .

لي رجاء واحد منك يا بني : إذا حملت هذه الأكياس و صرت تعدّها عدّا فلا تنس الفقراء والمساكين واليتامى ؛ إنما هو مال الله و إنا وأموالنا له وحده . "

أخذ إيليا يحتضن الرقعة و يبكي و راحت ندى تحتضن إيليا و تقول:

- لقد كان جدك صالحاً ومات صالحاً ، نزلت على روحه السكينة . لم ينفق الذهب لكنه أراد منك أن تساعد الفقراء و اليتامى . كفكف دموعك يا عزيزي ، لماذا تبكي ؟! كان من المفروض أن تفرح لأنك وجدت الذهب أخيراً ، و لابد أن تزداد فرحاً لأنك عرفتَ حقيقة جدك ، هيّا .

وبدأت ندى تمسح دموعه بطرف ردائها و هي تقول : أخبرني ماذا ستفعل الآن يا عزيزي ! ؟ ؟

صمت إيليا قليلاً ثم قال :

- سأفعل ما طلبه مني جدي حتماً ، سأوزع هذا الذهب على الفقراء ، لستُ راغباً فيه بعد الآن .

ابتسمت ندى ثم وضعت رأسها على كتفه و السكينةُ و الهدوءُ في كلماتها :

- إذا أنفق الفقراء هذا الذهب واستغلهم الأغنياء بسبب قلة خبرتهم ماذا سيحدث يا عزيزي ؟

أنت تعلم جيداً أنه لم يتسنّ لأحدهم من قبل ذلك أن يحظى بالذهب ، هل سيخرجون من ضيق الفقر إلى سعة الغنى بفعلك هذا ؟ لو كان هذا هو الحل لاقتسمه جدك مع الفقراء منذ زمن طويل . فكّر جيداً فيما ستفعله و بطريقة أكثر براعة و فائدة لك و لكل فقير في هذه القرية ، لا تستعجل في قراراتك . إن الكثير من الأشياء تحتاج لقرارات سريعة لكن ذلك يحدث إذا لم يكن لدينا متسع من الوقت ، أما أنت الآن فلديك الوقت بطوله و عرضه فركّز جيداً فيما ستفعله .

- ماذا تعنين ! ؟ ؟ أرجوا أن توضحي لي ذلك ، فكلماتك أكثر صعوبة من كلماتِ جدي .

- إذا قسمت المال بين الفقراء فماذا سيحدث برأيك ؟ هل سيتوقف الناس عن الثرثرة أو التهافت إليك سعياً منهم للحصول على المزيد ؟ و هل سيكفُّ قطاع الطرق واللصوص عن البحث عنك ؟ أو هل سيهملونك بعد ذلك ؟ إنك في هذه الحالة ستضحي بكثير من الناس و ستضحي بنفسك لأن قاطع الطريق إذا دخل عليك لن يتردد في إراقة دمك .

- و ماذا سأفعل ، هكذا لن أستطيع مساعدتهم ؟

أمسكت ندى بيدي إيليا حتى وقف ثم حملت الأكياس و ناولته إياها ثم قالت له :

- لنذهب إلى المنزل لأخبرك بما يجول في نفسي .

وانطلقا نحو المنزل معاً .. .

**

" ما أجمل أن تقضي حياتك في شيء جميلٍ يكون بعدها .. "

" المغامرة شيء من الإنجاز العظيم ، أن نواجه جميع أصناف الإرهاق والتعب ، أن نقاوم الحياة بما تحمله من أمواج القهر و الضيق ، أن نمسكَ بعجلة القيادة لسفينتنا وسط ضجيج الأمواج . إن الإنسان الذي يعشق المغامرة متمردٌ على قوانين الروتين الممل ، فالمغامر يمشي طويلاً في طريق صعب لكنه يكتشف أن وصوله إلى النهاية السعيدة هو ثمرة الاجتهاد في السعي خلف الرواية التي يحلم في تحقيقها ، فالرواية تبدأ بالمغامرة و تنتهي بالكتابة عنها . "

كان الظل في البيت كأنه ليل أدهم و النافذة لا تنقل من ضوء الشمس إلا القليل ، أخذت ندى أكياس الذهب و وضعتها أمامه ، ثم قالت له : إن كنت تريد أن تعيش ملكاً

و الناسُ من حولك ينتظرون عطفك و يطمعون في فضلك فخذ الذهب و ابدأ حياتك . و إن كنت تريد أن تعيش عظيماً ثم تموتُ عظيماً فحقق روايتك قبل موتك ، لابد لكل واحد منا أن يعيش روايته ، هذا ما أريد أن أخبرك به أيها الزعيم .

تعجب إيليا من كلمة " زعيم " و قال لها : ماذا تعنين بهذا ؟ ؟ !

ابتسمت ندى و أخذت تربط شعر رأسها نحو الخلف و تنظر إليه و تقول :

- أن يكون لديك طموح عالٍ يعني أن تكون على مقربة من السعادة الحقيقية . إن كانت الحياة أن تستمتع فقط فاعلم أنهم لن يزينوا قبرك بالذهب بعد موتك ، كل ما سيفعلونه هو أن يضعوا جسدك المتهالك في حفرة لا تستطيع فيها رفع يدك لإزالة نملة عضّتك في أنفك .

سأخبرك بشيء قد مررتُ به من قبل ، إن الحياة تجربة و مَنْ لم يستفد من تجارب الآخرين لن يستفيد شيئاً أبداً . لقد كان جدي يملك من الذهب والسلطة و الجاه ما لا يملكه أحد في قريتنا لكنه لم يعط أحداً ذهباً و لم يكن بخيلاً ، و كنتُ أتعجب كثيراً حين أرى الفقير يطلبُ منه المال فلا يعطيه لكن سرعان ما تحوّل التعجب منه إلى إعجاب به حين عرفتُ أن جدي يقوم بمساعدتهم دون أن يعطيهم المال ، فقد كان يبحث لهم عن الأعمال و يرسل إليهم أرباب الأعمال ليأخذوهم من بيوتهم . أتعلم يا عزيزي لقد شعر الناس بأن الحياة أكثر جمالاً و عرفوا أن العمل و السعي و النية هم سبب النجاح . ها هم يخرجون من دائرة الفقر بجهودهم أي أنهم لم يشعروا في يومٍ أن لأحد فضلاً عليهم . أضف إلى ذلك أنه لم يسمح لتاجر أن يرفع الأسعار و يحتكر ، فقد وقف في وجه كل من سعى للاحتكار أو أراد غش الناس فعاش الناس في قريتنا و لم يكن هناك فقير أو محتاج .

فماذا ستفعل أنت إن كان التجار يستغلون الناس في قريتك و يعبثون بالأسعار ؟ يجب أن لا تعطي الناس المال بل يجب أن تعلّمهم الطريقة الصحيحة في جنيه . ألم تسمع بالصياد الذي كان يأخذ أطفال الفقراء معه في السفينة فيعلمهم الصيد ليستطيعوا بعد ذلك أن يجرّوا شباك صيدهم دون مساعدة من أحد و يقتاتوا و يبحثوا عن رزقهم بأنفسهم لتعيش عائلة كل واحد منهم حياة كريمة ، و هذا خيرٌ من ذل السؤال . فما الفائدة التي ستجنيها حين تعطيهم السمك إذا لم يتعلموا اصطياده ؟ هل فهمت المقصود ! ؟ ؟

- لقد صدقتِ يا عزيزتي لكن المشكلة أني لا أجيد التجارة و لم أدخل السوق في حياتي ، لابد لي أن أكون تاجراً عتيقاً متمرّساً أستطيع الوقوف أمام هؤلاء اللصوص دون أن يستطيعوا خداعي ! ؟ ؟

(كانت ندى خلال تلك المحادثات تحلّل شخصية إيليا ، لقد عرفت أنه رجل يحب الاعتماد على نفسه لكن ذلك جعل منه رجلاً بلا خبرة ، إذ إن الذي يسعى للنجاح في حياته عليه أن يخالط الناس و يتعلّم من تجاربهم و يزيد من اجتهاده ليتجاوزهم .)

أحضرت ندى بعض الماء ثم سكبته على يديه و قالت له :

- اغسل وجهك قبل أن تجف الدموع ، ثم جلست أمامه و ابتسمت و قالت بكل ثقة و هدوء :

- لدي خبرة في هذا ، لا تقلق ، أنا أثق تماماً بأنك ستكون رجلاً عظيماً و زعيماً حقيقياً لكن لدي رجاء يا عزيزي أرجوه منك .

- (قبل أن يرد جواباً أخذ قطعة من قماش و نشّف بها وجهه ثم أمسك بيديها و قال) :

- تفضلي يا عزيزتي ما هو طلبك ؟

- لتعلمْ يا عزيزي أنك إذا فعلت هذا كله فسيكون لك يوماً ما كثيرٌ من الأموال أكثر مما تملكه الآن ، و ربما ستبني قصوراً و تفتح سوقاً كبيراً وحدك فالتاجر الناجح لا يتوقف عند حد ، و مهما ملكنا من الدنيا فإننا نحن البشر لا نتوقف عن طلب المزيد ، إننا كالنار تأكل و لا تشبع ، هكذا هي نفوسنا .

ثم حرّكت ندى يدها و أمسكت بيدي إيليا و قالت :

- في ذلك الوقت إذا تحقق لك هذا كله يا عزيزي فكل ما أريده منك أن لا تتغير و أن تستمر في دفع البلاء عن هؤلاء المساكين و أن تكون زعيماً حقيقياً يوماً ما ، فإني رأيتُ كثيراً من الناس تغيّروا عندما ازدادوا ثراءً .

- أعدكِ بهذا ، لن أتغير و لن تغيرني الأموال مهما كثرت .

انتهت المحادثة باحتضان طويل أسفر عن نزول دموع ساخنة من عينيها لتذكرها جدها و عائلتها حين كانت تعيش في رخاء ونعيم و عندما كانت تقرأ الكتب في أحضان جدّها إلى أن وضع إيليا إبهامه تحت عينيها و مسح دموعها فعادت إلى نفسها القوة ، لقد عوضها الله بـ إيليا زوجا و أبا و أخا .

- إنني أشعر بالارتياح معك يا عزيزتي ، أشعر بأني أكثر قوة من ذي قبل ، إن الرجل مهما كبر لن يجد ما يكمل نقصه إلا امرأة يتزوجها ، صحيحٌ أن بعض الرجال يرى المرأة ناقصةً في نظره لكنها ستبقى مكملة لنقصه في نظر الحقيقة . لقد علّمونا يا عزيزتي أنه يجب على الرجال مخالفة نصائح المرأة لكن لا يمكن أن تكون هذه قاعدةً دائمة ، فبعض النساء لها من العقل ما يمكنه إغراق الرجل في وحل الحماقة لكن القليل من الرجال من يعي هذا ، و إن كانت المرأة جزءاً من الرجل حين خلقت حواء من ضلع آدم فإن الرجل إن كان أصلاً لابد أن يهتم بالجزء

المأخوذ منه حتى لا يفسد ، و إن تركه فمن الطبيعي أن يفسد باقي جسده . كنتُ أقول في نفسي دائماً : لا تنسَ أيها الرجل أن أصحاب الحكمة قالوا : إن أصغر النساء تستطيع قتل عبقرية الرجل ، وأذكى الرجال مَنْ ضمَّ عقل امرأته إلى عقله لينالا السعادة معاً . لن أتخلى عنك و سأعمل دائماً على نصحك .

أخذ إيليا بنصيحة ندى و قررا أن يخبئا الذهب كله في مكان ما و يأخذا كيساً واحداً فقط و يعودا إلى القرية و يعيشا فيها و يختلطا بالناس و يمارس إيليا التجارة لتكون بداية خير لهما و لأهل القرية .

و كانت ندى قد رسمت له خطواته تلك خطوةً خطوةً حتى لا تتفتح عيون اللصوص عليه و حتى ينال تحقيق طموحه في أقرب وقت ، لقد قالت له :

- أخبر الناس أنك قد ورثت بعض النقود عن جدك و أردت أن تدخل إلى السوق و تشتري دكاناً فيها ثم

تستقرض مالاً من أحد الأغنياء و ترهنَ بيتك لتتظاهر أنك لا تملك نقوداً أخرى و تبدأ تجارتك فيها حتى إذا اقترب موعد السداد أعدت إليه نقوده و استرجعت الرهن و كأنك قد نجحت في تجارتك تلك ، و هكذا تكبر يوماً بعد يوم و خلال هذه الفترة تساهم في مساعدة الفقراء و المحتاجين علناً فتخفض لهم الأسعار و تساعدهم قدر المستطاع و تهَبُ لهم البسمة و السعادة . فإذا أحبوك انجذبتْ قلوبُهم إليك ، و بعد أن يحبّوك لن تجد في هذه القرية من يحاول إيذاءك ، و يوماً بعد يوم تكبر أكثر فأكثر و تصبح زعيماً و سيداً لهم ، و إذا أصبحت كذلك فلن يقف في وجهك تاجر أو مخادع فتخفض لهم الأسعار و تبني لهم الديار و تبيد الفقر من بين أظهرهم و تغنيهم عن السؤال و تساعدهم في كل الأحوال فتكون لهم أباً و سيَّداً فلا يعصون لك أمراً أبداً . و بهذا تحقق رغبة جدك وتحقق طموحاتنا معك .

كان إيليا ينظر إليها متعجباً كأنها خطيب أمام جيشه فابتسم لها و أيقن أنها امرأةٌ عظيمة و أن طموحها العالي و الكبير سيحقق لهما الكثير من النجاح ، وأيقن عين اليقين أنه رجل ذو حظ عظيم ؛ فقليل من النساء من تملك هذه الرغبة و تساهم في نجاح زوجها .

بقي من الرواية

الفصول

الخامس – السادس ..... العاشر الأخير

بكل صدق

هل تستحق الرواية عناء الطباعة والنشر؟

أنتظر رأيك عزيز القارئ وإن كنت لم تقرأ البقية ..

ايميلي :

ibrahimalshamlan@gmail.com

صفحتي في الفيس بوك

https://www.facebook.com/ibrahimshamlan

لا تتردد في ابداء رأيك ..

ابراهيم الشملان